جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

مقومات الفلاح في القرآن الكريم

"دراسة موضوعية"

الدكتور

محمود أحمد محمود مخلص

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية أصول الدين والدعوة بطنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام ووفقنا للإيمان، وأكرمنا ببعثة خير الأنام محمد (ﷺ) أرسله الله سبحانه مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

وبعد،،،

فإن الله (ﷻ) خلق الإنسان وكرمه، واختصه بخصائص ووظائف، وأغدق عليه النعم والآلاء، وسخر له المخلوقات، ووهبه العقل ليميز به طريق الخير من طريق الشر وزوده بإمكانات فكرية وقدرات بدنية ليكون خليفة في الأرض يعمرها بالعمل الصالح، وقد شاءت حكمة الله تعالي أن يكون للنفس البشرية قابلية التوجه للخير أو الشر، فإذا أمسك المرء بزمام نفسه ووجهها إلي طريق الخير والإيمان والطاعة فقد نال الفلاح، وإذا أتبع نفسه هواها واتبع طريق الشيطان فقد خاب وخسر قال تعالى: "**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**" (الشمس: ٧: ١٠)

ويلاحظ أن القرآن الكريم كان اهتمامه منصبا على حث الإنسان على التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، والرقي بالنفس البشرية إلى درجة الكمال والوصول إلى الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، وقد جمع

الله فيه من أصول الخير ومناهج الهدى ما يصلح الحياة، ويرسي في الأرض دعائم الطمأنينة والسلام والأمن في شتى جوانب الحياة، وأودع فيه كل ما يحتاج الناس إليه في دنياهم ويسعدهم في أخراهم وهو علاج حقيقي لأمراض الإنسان ومشكلاته، واستجابة صادقة لنوازعه وحاجاته، فلا فلاح ولا نجاح ولا صلاح إلا بخلق القرآن وهداه، ولا غرو فهو دستور الإسلام وأساسه الأول الذي يجمع أحكامه، ويبين عقائده، ويوجه إلى آدابه وفضائله، فما أعظمه من كتاب، وما أجل أثره في حياة الفرد والمجتمع، ومن هداية القرآن للفرد وإصلاحه للمجتمع حديثه عن المفلحين، وبيان أهم صفاتهم التي أهلتهم للفوز والفلاح، إشادة بهم وإعلاء لمنزلتهم وترغيبا في السير على منوالهم، وإشاعة للفضيلة وحثا عليها، وإبراز أهم مظاهره في الدنيا والآخرة، ومن هنا تبرز أهمية البحث في مقومات الفلاح في ضوء القرآن الكريم وقد آثرت هذا الموضوع بالدراسة والبحث لأسباب منها:-

أولاً: محاولة الإسهام في رقي مجتمعنا الإسلامي المعاصر، والأخذ بيده من مهاوي الخسران التي أوشك أن يتردى فيها من خلال تبصيره بأسباب الفلاح، عله يستجيب لدوافع الفلاح، وينأى عن موارد الخسران.

ثانياً: التعرف من خلال القرآن الكريم علي مقومات الفلاح ومظاهره، فهذا الموضوع يعالج الهدف الأسمى الذي خلقنا الله من أجله، وكيفية الوصول إلى الفلاح وتجنب الخسران.

ثالثاً: ضرورة إرشاد الناس وحثهم علي العودة الصادقة إلى رحاب القرآن وهديه، والحرص علي التعلق بمقومات الفلاح والعمل بمقتضاها لينالوا الفوز في الدنيا والآخرة.

رابعا: أن الفلاح مما تتطلع إليه النفوس، وتتمنى الحصول عليه، وتحقيق أسبابه للحصول عليه، وتشتد الحاجة إليه حين بعد الناس عن دينهم – إلا من رحم الله– وهو هدف كل مسلم.

هذا، واقتضي البحث أن يتكون من مقدمة وتمهيد وثلاثة عشر مطلبا، أما المقدمة فتشتمل علي أسباب اختيار الموضوع، ومحتوياته، ومنهج البحث فيه، وأما التمهيد فيتضمن حقيقة الفلاح في اللغة ومفهومه في القرآن الكريم.

مقومات الفلاح في القرآن الكريم وتتضمن ثلاثة عشر مطلبا وهي كما يلي:-

١- الإيمان بالله تعالى
٢- تقوى الله تعالى
٣- النهي عن أكل الربا
٤- اجتناب الخمر والميسر
٥- اجتناب الشح
٦- طلب الوسيلة والجهاد في سبيل الله
٧- الإحسان
٨- الصبر
٩- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٠- أداء العبادات مع فعل الخيرات
١١- التوبة
١٢- العمل مع ذكر الله تعالى
١٣- ذكر آلاء الله تعالي

ثم ختمت البحث بإبراز أهم النتائج التي توصلت إليها.

ولقد كان منهجي في هذا البحث هو منهج الاستقراء والاستنباط والوصف وقد اتبعت فيه الخطوات التالية:-

١- جمع الآيات القرآنية التي تتصل بهذا الموضوع وقراءتها وتدبرها.

٢- الاستعانة بكتب التفسير الممكنة فيما يختص بتفسير الآيات القرآنية المتصلة بالموضوع.

٣ – ذكر سبب نزول الآية أو الآيات– إن وجد– لأنه يساعد على تفسير وفهم الآية الكريمة.

٤– المناسبة بين الآية أو الآيات وما قبلها، حتى أستطيع ربط الآيات ببعضها وإظهار صلتها وتآخيها.

٤– الاستعانة بكتب السنة في تخريج الأحاديث الشريفة، مع شرح بعض الألفاظ التي يصعب معرفتها.

٥– الرجوع إلي بعض المعاجم اللغوية المتصلة بالموضوع.

٦– أسندت كل قول لقائله إن كان النقل نصا مع الإشارة إلي الاختصار من عدمه، فمن بركة العلم أن يضاف إلى قائله.

ولا أدعي في بحثي هذا تفردا أو تميزا، فقد كنت فيه عالة على أسلافنا وعلماؤنا وأئمتنا وجهدي فيه وإن تضاعف فهو قليل، وإذا كان فيه من صواب وتوفيق فهو من الله تعالى وحده، وإليه يرجع الفضل كله، وله الحمد في الأولى والآخرة، وإن كان فيه من خطأ أو سهو أو تقصير فهو مني ومن الشيطان، وحسبي إخلاص النية، وأسأله الله تعالى أن يبارك في هذا البحث وأن يتقبله بقبول حسن، وأن ينبت كاتبه نباتاً علميا حسنا؛ لأنني – والله – ما أردت إلا الخير والفلاح لكل عباد الله في الدنيا والآخرة، وأسأل الله (ﷻ) أن يديم علي المسلمين أنعمه ظاهرة وباطنة، فهو سبحانه ولي النعم وهو الهادي إلي سواء السبيل،

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

تمهيد

حقيقة الفلاح في اللغة ومفهومه في القرآن الكريم

يحسن بنا قبل أن نعرض لمقومات الفلاح ومظاهره أن نذكر شيئاً مما تدعو الحاجة إليه فيما يتصل بحقيقة الفلاح في اللغة ومفهومه في الاستعمال القرآني، ليكون بمثابة توطئة يسيرة لما بعده.

حقيقة الفلاح في اللغة:

جاء في اللسان: الفلح والفلاح: الفوز والنجاة والبقاء في النعيم والخير، وإنما قيل لأهل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد، وفلاح الدهر بقاؤه وقال ابن السكيت: الفلح والفلاح: البقاء ويقال لكل من أصاب خيرا أفلح. والفلاح: الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال.وفي التهذيب: وفي حديث الأذان: حي على الفلاح، يعني: هلم على بقاء الخير، وقيل حي أي: عجل وأسرع على الفلاح معناه: إلى الفوز بالبقاء الدائم، أي هلموا إلى سبب البقاء في الجنة، والفوز بها وهو الصلاة في جماعة. وأهل الفلح: الشق والقطع، فلح الشيء يفلحه فلحا أي شقه، وقيل: للفلاح فلاح؛ لأنه يفلح الأرض أي يشقها، وحرفته الفلاحة.اه ملخصا([1]) **وقال ابن فارس:** فلح: الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على شَقٍّ، والآخر على فَوْزٍ وبَقاء. **فالأوَّل:** فَلَحتُ الأرضَ: شَقَقتُها. والعرب تقول: "الحديد بالحديد يُفْلَح". ولذلك سمِّي الأكّار فَلاَّحا. ويقال للمشقوق الشَّفةِ السُّفلى: أفْلَحُ. والأصل **الثّاني** الفَلاَح: البقاء والفَوْز. وقولُ الرّجُل لامرأته: "استَفلِحي بأمرِك، معناه: فَوزِي بأمرك.

(١) لسان العرب مادة فلح (٤/ ٣٤٥٨، ٣٤٥٩). دار المعارف – مصر.

والفَلاَح: السَّحُور. قالوا: سمِّي فَلاَحاً لأنَّ الإنسانَ تبقى معه قُوّتُه على الصَّوم. وفي الحديث: "صلَّينا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله حتَّى خفْنا أنْ يَفوتَنا الفَلاَح"(١)(٢) هذا مجمل أقوال أهل اللغة في معنى الفلاح، وكلها تدور حول معنى البقاء والفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال، والظفر وإدراك البغية.

مفهوم الفلاح في القرآن الكريم

لقد تكرر لفظ (أفلح) في القرآن الكريم ماضياً ومضارعاً، واسم فاعل أربعين مرة، قال الماوردي في تفسير قوله تعالى "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون" فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: معناه: قد سعد المؤمنون، **والثاني:** أن الفلاح البقاء، ومعناه قد بقيت لهم أعمالهم، وقيل: انه بقاؤهم في الجنة، **والثالث:** أنه ادراك المطالب، قال ابن عباس: المفلحون الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شرّ ما منه هربوا(٣) ويقول الراغب: الفَلاْحُ: الظَّفَرُ وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيويّ وأخرويّ، فالدّنيويّ: الظّفر بالسّعادات التي تطيب بها الحياة الدّنيا، وهو البقاء والغنى والعزّ، وفَلَاحٌ أخرويّ وذلك **أربعة** أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذلّ، وعلم بلا جهل.

---

(١) جزء من حديث وفيه: "فجمع نساءه وأهله واجتمع الناس، قال: فقام بنا حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح. قيل: وما الفلاح؟ قال: السحور. قال: ثم لم يقم بنا شيئا من بقية الشهر" أخرجه النسائي في سننه- كتاب الصلاة- باب من صلى مع الإمام حتى ينصرف (٣/ ٨٣)، وأحمد في المسند (٥/ ١٦٠) والمراد: الظفر الذي يحصل لنا بصلاة العتمة.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٤٥٠).

(٣) تفسير الماوردي (٤٤/٤) دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

ولذلك قيل: "لا عيش إلّا عيش الآخرة"(١) وقال تعالى "**وإن الدار الآخرة لهي الحيوان**" (العنكبوت:٤٩) ثم ذكر (رحمه الله) بعض الآيات التي ورد فيها لفظ " تفلحون"(٢) وذكر العلامة الألو سي كلام الراغب مع بعض تلخيص وذلك في تفسيره سورة يوسف(٣).

وقال ابن قتيبة: "المفلحون"من الفلاح؛ وأصله البقاء..فكأنه قيل للمؤمنين: مفلحون؛ لفوزهم بالبقاء في النعيم المقيم، هذا هو الأصل. ثم قيل ذلك لكل من عَقَلَ وحَزم، وتكاملت فيه خِلالُ الخير(٤).

وقال الإمام الطبري: "وتأويل قوله: "**وأولئك هم المفلحون**" أي أولئك هم المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله، من الفوز بالثواب، والخلود في الجنان، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب. وذكر بسنده عن ابن عباس: أي الذين أدْركوا ما طلبوا، ونجَوْا من شرّ ما منه هَرَبُوا. ومن الدلالة على أن أحد معاني الفلاح، إدراكُ الطَّلِبة والظفر بالحاجة، قول لبيد بن ربيعة:

اعْقِلِي، إنْ كُنْتِ لَمَّا تَعْقِلِي، ... وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ عَقَلْ، يعني ظَفِر بحاجته وأصابَ خيرًا.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب المناقب، باب دعاء النبي (ﷺ) أصلح الأنصار والمهاجرة (١٢ / ١٥٣)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير – باب غزوة الأحزاب وهي الخندق (١٤٣١/٣).

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص:٣٩٩ ط: دار الفكر، والآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) روح المعاني (١٢/ ٢١٣).

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص: ٩٣بتصرف، دار الكتب العلمية– بيروت لبنان، ١٩٧٨.

ثم قال: والفلاح أيضا: البقاء وذكر من أشعار العرب ما يدل عليه([1]).

والفلاح: الفوز وصلاح الحال، فيكون في أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، والمراد به في اصطلاح الدين الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة. والفعل منه، أفلح أي صار ذا فلاح، وإنما اشتق منه الفعل بواسطة الهمزة الدالة على الصيرورة لأنه لا يقع حدثا قائما بالذات بل هو جنس([2]).

فالعلاقة بين المعاني السابقة قائمة وهي تدل في الواقع على الظفر وإدراك البغية سواء من ناحية القطع وانفتاح المغاليق، أو من ناحية البقاء فيما ظفر به المفلح وفاز به، وعلى ذلك فالمفلحون: أولئك المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة والله أعلم.

وأما عن **أوجه استعمالاته في القرآن الكريم** فيطلق على وجهين: **فوجه منهما** أفلح يعني: سعد كقوله "**قد أفلح المؤمنون**" وقوله تعالى "**قد أفلح من تزكى**" (الأعلى: ١٤) **والوجه الثاني:** بمعنى الفوز، كقوله "**إنه لا يفلح الظالمون**"([3]) أي لا يفوزون في الآخرة([4]).

وبالتأمل فيما سبق يستبين لنا أن كلام المفسرين في بيان معنى الفلاح هو عينه كلام اللغويين، والذي يدور كله – حسبما رأيت من

---

(١) جامع البيان للإمام الطبري(١/ ٨٣) بتصرف، دار المعرفة – بيروت لبنان.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٤٧).

(٣) القصص:٣٧، وهذه الجملة القرآنية لها نظائر في سور أخرى.

(٤) ينظر: الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان ص:٣١٧، ٣١٨ ت: د: عبد الله شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٤، الوجوه والنظائر للدامغاني ص:٨٥، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: ١، ٢٠٠٢م.

أقوالهم – حول: الظفر بالمحبوب المطلوب والنجاة من المحذور المرهوب.والله أعلم.

مقومات الفلاح في القرآن الكريم

لفلاح المجتمع مقومات عديدة أشار القرآن الكريم إليها، وأخبر بالجزاء الكريم لمن اتصف بها وقام بتنفيذها، كما أن هناك طوائف من البشر ذكرهم الله تعالى في القرآن، وأمرهم ببعض الخصال الكريمة، ونهاهم عن بعض الخصال السيئة، ورغبهم ورهبهم، ووعدهم وتوعدهم، ثم بين أنهم إن امتثلوا ما أمروا به وانتهوا عما نهوا عنه فإنه يرجى لهم الفلاح وينبغي أن يكونوا هم راجين الفلاح بفعلهم للمأمورات وتركهم للمحظورات، وفيما يلي عرض لأهم هذه المقومات:-

المطلب الأول
الإيمان بالله تعالى

إن الفلاح يصبو إليه كل مسلم، ويبذل من أجله كل ما في وسعه حتى يحقق هذا الفوز العظيم، وهذا لا يتأتى إلا بالإيمان الصادق به (ﷻ). والمتأمل في القرآن الكريم يجد أن الإيمان له أهمية كبري ومزية عظمى، وهو أول مقوم من مقومات الفلاح السعادة، وهو رأسها، وبدونه لا قيمة لغيره من المقومات، وقد اشترط الله تعالى تحقق الإيمان في المؤمنين ليكون سببا في فلاحهم، بل إنه أساس التمييز بين الفلاح والخسران، وهو أساس قبول الأعمال، ويقول تعالى "**وما كان الله ليضيع إيمانكم**" (البقرة:١٤٣) كما أن الإيمان سبب سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة فالله تعالي يقول" **ومن يؤمن بالله يهد قلبه**"(التغابن:١١) كما يجلب الإيمان البركة والخير الكثير: "**ولو** أن **أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**" (الأعراف:٩٦) والإيمان سبب لتكفير السيئات "**ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم**" (المائدة:٦٥) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تؤسس وتؤصل لمعاني كثيرة مرتبة علي الإيمان يضيق المقام عن ذكرها ومن هنا جعل القرآن الكريم الإيمان بالله تعالى من الأسباب المؤدية إلى الفلاح في الدنيا والآخرة.

ولقد أثبت الله الفلاح وأكده للمؤمنين الذين استجمعوا خلال الخير والفضيلة وذلك في مطلع سورة المؤمنون حيث يقول تعالى "**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ**

مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (المؤمنون:١:١١) فهذه الآيات وتقرر الفلاح للمؤمنين وتعرض أهم صفاتهم التي بها يكونون خليقين بهذا الفوز العظيم، إنما تعلي شأن هاتيك الصفات، كما أنها تعلي في الوقت ذاته شأن المتصفين بها، وتعلن في وضوح لا لبس فيه أن هؤلاء مكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتوفيق، ومكتوب لهم الفوز والنجاة والثواب والرضوان، كما يفهم منها الحط من قدر معدومي تلك الفضائل والقيم، وتحقر من شأن الواقعين في أوحال الرذائل.

"وكلمةُ "**قد**" هاهنا لإفادةِ ثبوتِ ما كان متوقعَ الثُّبوتِ من قبلُ لا متوقعَ الإخبارِ به ضرورةَ أنَّ المتوقعَ من حال المؤمنينَ ثبوتُ الفلاحِ لهم لا الإخبارُ بذلك، فالمعنى: قد فازوا بكلِّ خيرٍ ونجوا من كلِّ ضيرٍ حسبما كان ذلك متوقعاً من حالِهم فإنَّ إيمانَهم وما تفرَّعَ عليه من أعمالهم الصالحةِ من دواعي الفلاحِ بموجب الوعدِ الكريمِ خلا أنَّه إنْ أُريد بالإفلاح حقيقةُ الدُّخولِ في الفلاح الذي لا يتحققُ إلا في الآخرة فالإخبارُ به على صيغة الماضي للدِّلالة على تحققه لا محالةَ بتنزيله منزلةَ الثابتِ وإنْ أُريد كونُهم بحالٍ تستتبعُه البتةَ فصيغةُ الماضي في محلِّها"(١) ونيط الفلاح بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب الأعظم في الفلاح، فإن الإيمان وصف جامع للكمال لتفرع جميع الكمالات

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٤٠١).

عليه"(١) وهؤلاء المؤمنون هم الذين خَشَعَتْ قُلُوبُهم وَخَافَتْ مِنَ الله، والخُشُوعُ فِي الصَّلاَةِ إِنَّمَا يَحْصلُ لِمَنْ فَرَغَ قَلْبُه لَهَا والذينَ يَنْصرِفُونَ إِلَى الجِدِّ، وَيُعْرِضُونَ عَمَّا لاَ فَائِدَةَ مِنْهُ مِنَ الأَفْعَالِ والأَقْوالِ، وَالذينَ يُطَهِّرُونَ أَنْفُسَهُم من الشرك ويؤدون زَكَاةِ أَمْوالِهِمْ، والذينَ يَحْفَظُونَ فُرُوجَهُم فَلاَ يقترفون مُحَرَّماً، وَلاَ يَقَعُونَ فِيمَا نَهَاهُم اللهُ عَنْهُ مِنْ زَنَىً وَغَيْرِه، وَلاَ يَقْرَبُونَ سِوَى مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهم، وَمَنْ بَاشَرَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ فَهُوَ غَيْرُ مَلُومٍ فِي ذَلِكَ.

فَمَنْ تَجَاوَزَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَى غَيْرِه مِنَ الحَرَامِ، فَهُوَ مِنَ المُعْتَدِينَ، المُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ مَا شَرَعَ الله، وَالذينَ إِذَا ائْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا أَمَانَاتِهم، بَلْ يُؤَدُّونَها إِلى أَهْلِهَا، وإِذَا عَاهَدُوا أو عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلِكَ، وَلَمْ يَخُونُوا وَلَمْ يَغْدُرُوا، وَبقوا مُحَافِظِينَ عَلَى عُهُودِهِمْ وأَمَانَاتِهِمْ وعُقُودِهِمْ، والذينَ يُداوِمُونَ عَلَى أَدَاءِ صَلَوَاتِهِمْ ويُؤَدُّونَها فِي مَوَاقِيتِهَا، ويَتِمُّونَها بِخُشُوعِها، حَتَّى تُؤَدِّي المَقْصُودَ مِنْهَا، وَهُوَ خَشْيَةُ الله، والانْتِهَاءُ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ، ثم يعقب الله تعالى بالجزاء الأوفى لهؤلاء المفلحين، وهذا هو"الوعد الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين. وعد اللّه لا يخلف اللّه وعده وقرار اللّه لا يملك أحد رده. الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة. الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لا يعرفونه مما يدخره اللّه لعباده المؤمنين"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٨).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٥٣).

ومن صفات المؤمنين المفلحين أنهم مستجيبون لله ولرسوله، راضون بحكم الله ورسوله، مطيعون لأمر الله ورسوله، يؤكد ذلك قوله تعالى "**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**" (النور:٥١).

والمتأمل في سياق هذه الآية الكريمة يرى أنها ذكرت عقيب ذكر جملة من قبائح المنافقين، ومن جملة قبائحهم أنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فإذا كان الحق عليهم فهم معرضون عن الرسول (ﷺ) وعن الحق الذي حكم به، أما إذا كان الحق لهم فإنهم يأتون منقادين مستسلمين.وجريا على عادة القرآن في إتباع ذكر الباطل وأهله الحق وأهله، – أو العكس حسب مقتضى السياق– أقول: لما كان الأمر كذلك جاءت آيتنا الكريمة تعلي شأن المؤمنين، ولا سيما بتحليهم بهذه الصفة العظيمة وهي "السمع والطاعة" وهذا مقتضى الإيمان الصادق، لذا حكم الله لهم بالفلاح، فمن ألف أن يقول(سمعنا وأطعنا) صادقا هو المفلح في الدنيا باتباعه دين الله وشرعه، وهو سبيل السعادة الحقة، وهو المفلح في الآخرة، وهل هناك فلاح بعد ذلك؟ولنتأمل هنا ترتيب الفلاح على هذا النوع من الطاعة والرضا، وما ذلك إلا لحض المؤمن على التخلق بذلك في كل أحواله وجميع شئونه، مع مجيئه بمثل هذا التركيب البلاغي ليؤثر في القلوب، ويهذب النفوس، ولبيان الفرق بين حسن أدب المؤمنين وسوء أدب المنافقين، يقول ابن عاشور: "وجيء في وصف المؤمنين بالفلاح بمثل التركيب الذي وصف به المنافقون بالظلم بصيغة القصر المؤكد؛ ليكون الثناء على المؤمنين ضدا لمذمة المنافقين تاما، فالمقصود منه الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في

المنشط والمكره، وفيه تعريض بالمنافقين؛ إذ يقولون كلمة الطاعة ثم ينقضونها بضدها من كلمات الإعراض والارتياب"(١).

ومن صفات المؤمنين المفلحين أنهم مؤمنون بالنبي (ﷺ) متبعون دينه وشرعه، يقول تعالى "**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**" (الأعراف:١٥٧).

والآية تقرر أن الذين آمنوا بمحمد (ﷺ) ووقروه وعظموه ونصروه وجعلوه في المنزلة التي تليق به، واتبعوا القرآن، هؤلاء هم دون غيرهم الفائزون بالدرجات العلى. فقوله "**فالذين آمنوا به**" بيان لكيفية اتباعه (ﷺ)، وبيان لعلو رتبة المتبعين، وقوله "**أولئك هم المفلحون** "إشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للإشعار بعليتها للحكم، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم في الفضل والشرف، أو أولئك المنعوتون بتلك النعوت هم المفلحون الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب.(٢) واستشكل هنا كيف يمكن حمل النور هنا على القرآن والقرآن إنما أنزل على النبي (ﷺ) لا معه، بل أنزل مع جبريل (عليه السلام)؟ قلت: معناه: انزل مع نبوته، لأن نبوته ظهرت مع ظهور القرآن، أو ظهر القرآن مع ظهور نبوته(٣) ويجوز أن يكون (معه)متعلقا بـ(**اتبعوا**) أي: واتبعوا

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٧٥).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٣٩).

(٣) ينظر:السراج المنير (٢/ ٦٠٢)، محاسن التأويل (١٩٧/٥).

القرآن المنزل مع اتباعه (عليه السلام) بالعمل بسنته وبما أمر به أو نهى عنه، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه(١) ومقصود الآية أن الفلاح والفوز لا يتحقق إلا بالإيمان بالنبي (ﷺ) وتوقيره وإجلاله وتعظيمه ونصرته ونصرة دينه واتباع لكل ما جاء به من عند ربه تعالى.

ومن صفات المؤمنين المفلحين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله مهما كانت درجة قرابته، يقول تعالى "**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا (رضي الله عنهم) وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**" (المجادلة:٢٢).

فهذه الآية الكريمة متضمنة لبعض خصال الإيمان، وصفات المؤمنين والمنبئة عن علو رتبتهم وشرف مكانتهم وعظيم قدرهم، وإذا نظرنا إلى سبب نزول هذه الآية نجد أنها نزلت في أبي عُبَيْدَة بن الجرّاح قتل أباه عبد الله بن الجرّاح يوم أحدٍ، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدرٍ إلى المبارزة وفي مُصْعَب بن عُمَير، قتل أخاه عُبَيد بن عمير يوم أحُدٍ. وفي عمرٍ، قتل خالَه العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدرٍ. وفي عليٍّ وحمزة وعُبيدة، قتلوا عُتْبة وشَيْبة ابني ربيعة، والوليدَ بن عتبة يوم بدر(٢) ومقصود الآية كما يقول صاحب التفسير الوسيط: النهي عن موالاة الكافرين وأشباههم، وإنما جاءت بصيغة الخبر، لأنه أقوى وآكد في التنفير عن موالاة أعداء اللّه، إذ الإتيان بصيغة الخبر تشعر بأن القوم

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ٣٩).

(٢) أسباب النزول للإمام الو احدي ص:٤٧٨، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، ط: ٣، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

قد امتثلوا لهذا النهى، وأن اللّه سبحانه قد أخبر عنهم بذلك(١) فالآية الكريمة تصرح في جلاء بوجوب ترك محبة من حاد الله ورسوله، مهما كانت درجة قرابته، وفي ذكر من ذكرتهم الآية دليل على النهي عن غيرهم من باب أولى"وبدأ بالآباء لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم، فنهاهم عن موادتهم ثم ثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم أتى ثالثا بالإخوان لأنهم بهم التعاضد ثم رابعا بالعشيرة، لأن بها التناصر، وبهم المقاتلة والتغلب والتسرع إلى ما دعوا إليه"(٢).

ثم أثنى الله عليهم وأثابهم ورفعهم إلى أعلى مقام حيث أشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعد مرتين لبعد منزلتهم في الفضل، ولزيادة تميزهم عن غيرهم، وإشارة لاختصاصهم بسعادة الدارين فقال سبحانه "**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان**" فاختلط بها واختلطت به، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه

"**وأيدهم بروح منه**" أي ثبتهم وقواهم بنور من عنده تعالى، يقول الخطيب الشربيني: "لا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله تعالى، ومعاداة أعدائه، لا بل هو عين الإخلاص، ومن جنح إلى منحرف عن دينه، أوداهن مبتدعاً في عقيدته نزع الله تعالى نور التوحيد من قلبه"(٣) ثم وعدهم الله تعالى وعدا محققا فقال "**ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه**" ويبرز لنا الحافظ ابن كثير سرا بديعا في الآية فيقول:" إنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم،

(١) التفسير الوسيط أد محمد سيد طنطاوي (١٤/ ٣٥٢).
(٢) البحر المحيط (١٠/ ١٣١).
(٣) السراج المنير (٤/ ٢٥٠).

وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم"([1]).

"**أولئك حزب الله**" أي هؤلاء هم عباد الله وأهل كرامته فهم جند الله الذي أحاط بجميع صفات الكمال، وفي إضافتهم إلى الله تشريف لهم ببيان اختصاصهم به (ﷻ)، وقوله "**ألا إن حزب الله هم المفلحون**" تنويه بفلاحهم وسعادتهم وفوزهم ونصرهم في الدنيا والآخرة الكاملون في الفلاح، الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة على فلاحهم كلا فلاح([2]).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩).

(٢) ينظر: فتح القدير (٥/ ٢٧٥)

المطلب الثاني
تقوى اللـــه تعالى

تعد تقوى الله من أعظم الأسس التي تدفع بالعبد إلى الفلاح "إذ إنها تحمل في طياتها معني الإيمان والتوبة والطاعة وترك المعصية والإخلاص، وهي الأصل الأول لأخلاق الإسلام الفردية والاجتماعية التي أمضاها وأعلنها، ورفع شأنها، وجعلها من العزائم المفروضة والفضائل الواجبة (١). **وأما التقوى في اللغة** فهي مشتقة من الوقاية وهي حفظ النفس مما يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء، قال تعالى "**فَوَقَاهُم اللهُ شَرَّ ذلِكَ اليَوم**" (الإنسان:١١) وقال تعالى "**وَوَقَاهُم عَذَابَ الجَحِيم**" (الدخان:٥٦) قال الأزهري: "وأصل الحرف وقي يقي، ولكن التاء صارت لازمة لهذه الحروف فصارت كالأصلية، والتاء فيها مبدلة من الواو لأن أصلها من الوقاية وتقديرها (اوتقي) فقلبت تاء وأدغمت، فلما كثر استعمالها توهموا أن التاء من نفس الحرف فقالوا اتقى يتقي بفتح التاء فيها"(٢) والوقاية: ما يقي الشيء، واتق الله: توقه أي اجعل بينك وبينه كالوقاية(٣).

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ص:٩٨ دار الكتاب العربي- ١٤١٠هـ.

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٩ / ٣٧٥) تحقيق: أحمد عبد العليم البرد ونى ط: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(٣) معجم مقاييس اللغة (٦ / ١٣١).

وأما التقوى اصطلاحا فهي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك(١) وقيل: هي حفظ النفس عما يشينها ويعرضها للهلاك أو العذاب وذلك بترك أسباب السخط والعقوبة وفعل الفرائض المنجية المؤدية إلي النعيم والثواب وعرفها بعض العلماء فقال: هي فضيلة أراد بها القرآن الكريم إحكام ما بين الإنسان والناس، وإحكام ما بين الإنسان والخالق ولذلك كان المراد من حديث القرآن عن التقوى في أكثر الآيات أن يتقي الإنسان كل ما فيه ضرر لنفسه، أو مضارة لغيره(٢).

وأرى – والله أعلم – أن التعريف الأول هو الراجح لإيجازه وشموله فهو مع إيجازه إلا أنه شمل فعل كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهي عنه.

وإذا تحققت التقوى من عباد الله المؤمنين حققت لهم ثمراتها العظيمة المتمثلة في الثواب الجزيل والأجر العظيم، والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك، فقد أعد الله للمتقين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا يدل على الجزاء الأكمل والأجر الجزيل الذي أعده المنعم الوهاب للمتقين. ولقد صرح القرآن ببعض صفات المتقين المفلحين فقال **سبحانه** "**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ**

(١) التعريفات للجرجاني ص: ٩٠ نشر: دار الكتاب العربي ط الأولي – ١٤٠٥ هـ.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن د / أحمد الشرباصي (١ / ٢٠٢ – ٢٠٤) بتصرف دار الرائد العربي بيروت.

الْمُفْلِحُونَ" (البقرة٣: ٥) فكأن هذا الموضع يخص من صفات المتقين هاتيك الصفات إعلاء لقدرها، وإبرازا لفضلها إنها:الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله والإيمان بما أنزل على النبي (ﷺ) وبما أنزل من قبله– صلوات الله وسلامه عليهم – واليقين بالآخرة، ثم عقب الله تعالى بالثناء عليهم بأنهم على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون، وبناء الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز، وتكريره وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل لإظهار قدرهم ومنزلتهم والترغيب في اقتفاء أثرهم.

وأترك القلم لينقل لك هذا التوجيه النفيس الذي سطره العلامة أبو السعود إذ يقول: "تكريرُ اسمِ الإشارة لإظهار مزيدِ العنايةِ بشأن المشارِ إليهم، وللتنبيه على أن اتصافَهم بتلك الصفات يقتضي نيلَ كلٍّ واحدة من تينك الأثَرَتين، وأن كلاً منهما كافٍ في تميّزهم بها عمن عداهم، ويؤيده توسيطُ العاطف بين الجملتين، بخلاف ما في قوله تعالى"**أُوْلَئِكَ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغافلون**" (الأعراف:١٧٩) فإن التسجيلَ عليهم بكمال الغفلة عبارةٌ عما يفيده تشبيهُهُم بالبهائم، فتكون الجملةُ الثانية مقررةً للأولى، وأما الفلاحُ الذي هو عبارةٌ عن الفوز بالمطلوب فلمّا كان مغايراً للهدى نتيجةً له وكان كلٌّ منهما في نفسه أعزَّ مرامٍ يتنافس فيه المتنافسون فُعل ما فُعل، و"**هم**" ضميرُ فصلٍ يفصِل الخبرَ عن الصفة ويؤكِّد النسبة، ويفيد اختصاصَ المُسند بالمسند إليه، أو مبتدأ خبرُه المفلحون، والجملةُ خبرٌ لأولئك، وتعريفُ المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناسُ الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة، أو إشارةً إلى ما يعرِفه كلُّ أحد من حقيقة المفلحين وخصائصِهم. هذا، وفي بيان

اختصاصِ المتقين بنيل هذه المراتبِ الفائقةِ على فنونٍ من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير إليه في تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب في اقتفاءِ أثرِهم والإرشاد إلى اقتداءِ سيرِهم ما لا يخفى مكانُه"(١) فالتعبير بالجملة الاسمية يدل على دوام الفلاح، وأنه دائم بدوام من يعطيه، وهو رب العالمين، وأكده بتعريف الطرفين، وهما اسم الإشارة، وكلمة: "المفلحون"، وتعريف الطرفين يدل على القصر، أي أنهم هم المفلحون وحدهم دون غيرهم، فهم قد خلصت قلوبهم وعقولهم وكل مداركهم للحق جل جلاله، وفاضوا بخيرهم، وتحملوا المشاق في سبيلهم، وآمنوا بكل الرسالات"(٢).

قلت: وهذا حق فقد حصر الله تعالى الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسران.

هذا، وقد علق الله حصول الفلاح علي تحقق تقواه في أكثر من آية فيقول تعالى "**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (**البقرة:١٨٩**) وقال تعالى "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (آل عمران:١٣٠) وقال سبحانه "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (**آل عمران:٢٠٠**) وقال (ﷻ) "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (المائدة:٣٥) وقال عز

(١) تفسير أبي السعود (١/ ٤٥).

(٢) زهرة التفاسير (١/ ١١٣، ١١٤).

شأنه "**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي ؟ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (المائدة:١٠٠).

فهذه الآيات جميعها تفيد أن الفلاح وهو الظفر بالبغية ثمرة مترتبة على تقوى الله، و"لعل" وإن كانت تفيد الرجاء والطمع في حصول المرغوب فإنها تفيد القطع والوجوب في حقه تعالي، قال الزركشي في برهانه: "ولعل من الله تعالي واجبة، وإن كانت رجاء وطمعاً في كلام المخلوقين؛ لأن الخلق هم الذين يعرض لهم الشكوك والظنون والبارئ منزه عن ذلك"(١) يؤكد ذلك كلام الراغب حيث قال: لَعَلَّ: طمع وإشفاق، وذكر بعض المفسّرين أنّ «لَعَلَّ» من اللّه واجب، وفسّر في كثير من المواضع ب «كي»، وقالوا: إنّ الطّمع والإشفاق لا يصحّ على اللّه تعالى، و«لعلّ» وإن كان طمعا فإن ذلك يقتضي في كلامهم تارة طمع المخاطب، وتارة طمع غيرهما"(٢).

وكل آية من هذه الآيات تنهي عن أمر ما من الأمور، فآية آل عمران الأولى تنهي عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة وتختتم بتقوى الله، والآية الثانية في السورة نفسها تأمر المؤمنين بالصبر والمصابرة في سبيل الله وتختتم أيضا بالتقوى، وآية المائدة الأولي تأمر المؤمنين بالتقوى وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيل الله، والآية الأخيرة تنهي عن عدم العجب بالخبيث ولو كثر مع ختامها أيضا بالتقوى، لذا رأينا أن

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤ / ١٥٨) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط: دار التراث – القاهرة.

(٢) المفردات للراغب ص: ٤٧١.

نضع كل آية من هذه الآيات تحت أساس من أسس فلاح المجتمع غير تقوى الله تعالي.

فإذا رجعنا إلى آية البقرة لنكشف عن بعض ما فيها من المعاني لوجدنا أنها نزلت لترد علي المشركين في دخولهم البيوت من ظهورها إذا أحرموا بحج أو عمرة، روى البخاري عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله الآية"(١) وذكر ابن جرير عن الزهري سبب ذلك وهو أنهم كانوا يتحرجون من الدخول من الباب من أجل أن سقفه يحول بينهم وبين السماء"(٢).

وبعد أن أعلمهم الله بخطئهم في ذلك بين لهم البر الحقيقي فقال: "ولكن البر من اتقي....." أي أن البر الحقيقي هو تقوى الله تعالي بالتخلي عن المعاصي والرذائل وعمل الخير والتحلي بالفضائل واتباع الحق واجتناب الباطل، فأتوا البيوت من أبوابها، وليكن باطنكم عنواناً لظاهركم، فجعل المتقي نفس البر إلهاباً له إلى الإقبال على التقوى، ولما كانت التقوى حاملة على جميع ما مضى من خلال الإيمان الماضية اكتفى بها(٣) ولما كان التقدير: فاتقوا فلا تسألوا عما لا يهمكم في دينكم عطف عليه: "**وأتوا البيوت من أبوابها**" حساً في العمل ومعنى في التلقي" **واتقوا الله**" فإن تقواه سبب فلاحكم وتحقيق آمالكم ونجاتكم مما

(١) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن باب وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها.... الآية" (٣ / ١٤٥).

(٢) جامع البيان للطبري (٢ / ١٩٣) دار المعرفة – بيروت– لبنان.

(٣) نظم الدرر (٣/ ١٠٢).

تحذرون وتخشون. قال صاحب المنار: "واتقوا الله رجاء أن تفلحوا في أعمالكم وتبلغوا غاية آمالكم فمن يتق الله يجعل له من أمره يسرا"(١).

وصاحب المنار بقوله:- رجاء أن تفلحوا يَجعل الرجاء من المخاطبين فهم يتقون الله حالة كونهم راجين الفلاح والفوز، وما ذكرته أولي ألا وهو أن "**لعل**" في حقه تعالي تفيد الوجوب والقطع. فقوله: "**وَاتَّقُوا اللهَ**" أي اتقوه -سبحانه- في جميع أموركم، والجملة معطوفة على جملة "**وَأْتُوا البُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا**" وتم الوصل بين الجملتين؛ لاتفاقهما في الإنشاء، وتناسبهما في المعنى، فبين الجملتين توسطًا بين الكمالين.

وجملة "**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" ظاهرها أنها متعلقة بجملة "**وَاتَّقُوا اللهَ**"؛ لأن تقوى الله هي جماع الخير من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، فعلق التقوى برجاء الفلاح، وهو الظفر بالبغية، والتعبير بالمضارع "تفلحون" الذي يفيد الاستمرار والتجدد دعا بعض المفسرين إلى أن يقرر أن المعنى: لتكون حالكم حال من يرجى التجدد لفلاحه وهو ظفره بجميع مطالبه من البر وغيره(٢) وقيل: الجملة تعليل للأمر بالتقوى؛ ولذلك فصلت عما قبلها(٣) ويبين لنا صاحب الظلال أن هذه الآية الكريمة بمثابة تصحيح التصور الإيماني للبر فيقول: فالبر هو التقوى هو شعور بالله ورقابته في السر والعلن، وليس شكلية من الشكليات التي لا ترمز إلي شيء من حقيقة الإيمان، ولا تعني أكثر من عادة جاهلية كذلك

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢ / ٢٠٧) دار الفكر – ط الثانية.
(٢) نظم الدرر (٣/ ١٠٣).
(٣) انظر البحر المحيط (٧٢/١).

أمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها وكرر الإشارة إلي التقوى بوصفها سبيل الفلاح"(١)

وأما قوله "**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة.** فهو نداء من الله تعالى المؤمنين، وهم قريبون منه، ولكنه عدل إلى نداء البعيد؛ للدلالة على عظم تعاطي الربا، والإشعار بمنزلة التقوى، وما يترتب عليها من الفلاح في الدين الدنيا، وهو نهي عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة كما كانوا يفعلون في الجاهلية إذا حل أجل الدين إما أن يقضي وإما أن يربي، وهكذا كل عام حتى يكثر القليل ويتضاعف(٢).

والأضعاف جمع ضعف، وهو من جموع القلة، فلذلك أردفه بالمضاعفة لما نهاهم عن أمر صعب عليه فراقه وهو الربا(٣) وذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس قيدا للنهي، وإنما هو لزيادة التوبيخ ولبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية، وللتشنيع بأن في هذه المعاملة بُعدا عما يقتضيه الإنصاف، وظلما، وعدوانا مبينا، حيث كانوا يأخذون الربا أضعافا مضاعفة(٤). وهذا النهي عن أكل الربا أضعافا مضاعفة اقترن بأمر الله تعالى عباده بالتقوى على وجه العموم، ويدخل فيه دخولا أوليا هذا الذي حرم عليهم من أكل الربا، لعلهم يفلحون في الأولى والآخرة وهذا الوضوح في الربط بين التقوى وبين رجاء الفلاح

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (١ / ٤٤) ط: دار الشروق ط الثانية عشرة.
(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٤٤) دار البيان العربي.
(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٣ / ٥٨) دار الفكر ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
(٤) انظر حاشية زاده على تفسير البيضاوي ١٦٩/٣، صفوة التفاسير ١/ ١٩٤.

في الدنيا والآخرة على معنى: اتقوا الله لكي تفلحوا أو راجين أن تفلحوا: أبلغ في تحميل أمانة اتقائه، وأدعى إلى عدم التخلف عن حمل هذه الأمانة بدقة وإخلاص، ما دام ذلك من معاقد الرجاء في فلاح المكلف وذلك بالظفر ببغيته في الدنيا ويوم الدين.

والتعقيب بالأمر بالتقوى أنسب تعقيب لأنه لا يأكل الربا إنسان يتقي الله، ولا يأكله إنسان يؤمن بالله فالجمع في هذه الآية بين النهي عن الربا والدعوة إلي تقوى الله ليس عبثا ولا مصادفة إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها في تصورات المسلمين وكذلك رجاء الفلاح بترك الربا وتقوي الله، فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى"([1]) فلما نهاهم عن أكل الربا أردف ذلك بالأمر بتقوى الله تعالى؛ لأنها هي الحاملة على ترك ما نهى الله عنه([2]).

وأما قوله تعالى "**يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**" فهو نداء علوي للذين آمنوا وهو نداؤهم بالصفة التي تربطهم بمصدر النداء وتكرمهم في الأرض كما تكرمهم في السماء وتجعلهم أهلا لما سيلقي عليهم من أعباء تحتاج إلي صبر ومصابرة ومرابطة وتقوى. وسوف أقوم بتفسير هذه الآية في موضعها اللائق إن شاء الله تعالي فيما بعد، بيد أن الذي يعنينا منها هنا ختامها بالأمر بتقوى الله في جميع الأمور والأحوال، ولقد علق الله حصول الفلاح على تقوى الله تعالي. قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: يعني بذلك تعالي ذكره "واتقوا الله" أيها المؤمنون، واحذروه فتبقوا في

(١) الظلال (٢ / ٤٧٤).

(٢) انظر البحر المحيط ٥٨/٣، روح المعاني ٣٦٩/٤.

نعيم الأبد وتنجحوا في طلباتكم عنده، كما قال محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قوله "واتقوا الله لعلكم تفلحون": واتقوا الله فيما بيني وبينكم "لعلكم تفلحون" هذا إذا لقيتموني"(١) وتلك ثمرة من ثمار التقوى وسبب في الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

وأما قوله (ﷻ) "**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون**" فقد جاء بعد آيات الحرابة ليبين أن المنهج الرباني لا يأخذ الناس بالقانون وحده، إنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه إلا السيف، فأما اعتماده الأول فهو على تربية القلب، وتقويم الطبع وهداية الروح، ذلك إلي جانب إقامة المجتمع الذي تنمو فيه بذرة الخير وتزكو، وتذبل فيه نبتة الشر وتذوي لذلك ما يكاد ينتهي السياق القرآني من الترويع بالعقوبة حتى يأخذ طريقة إلى القلوب والضمائر والأرواح يستجيش فيها مشاعر التقوى ويحثها على ابتغاء الوسيلة إلى اللّه والجهاد في سبيله رجاء الفلاح"(٢) وجاء تذييل الآية بالفلاح تعقيباً علي هذه الأوامر الثلاث التقوى، وطلب الوسيلة إلي الله، والجهاد في سبيله قال الدكتور حجازي في تفسير هذه الآية: اتقوا الله وابتغوا إليه القربى بالطاعة واجتناب المنهيات، واحتملوا المشقة في سبيل الله كل ذلك رجاء الفوز والفلاح في المعاش والمعاد"(٣) وسوف أقوم بتفسير هذه الآية في موضعها إن شاء الله تعالى.

---

(١) جامع البيان (٤/ ٥٠٩).

(٢) الظلال (٢/ ٨٨١).

(٣) التفسير الواضح د/ محمد حجازي (١ / ٥١٠) دار التفسير للطبع والنشر – الزقازيق ط: العاشرة ١٩٩.

ومن الآيات التي قررت أن التقوى من أسس الفلاح ومقوماته قوله تعالي "**قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي ؟ لعلكم تفلحون**" حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الردئ والجيد والخبيث والطيب من الأعمال والأقوال والأموال وغير ذلك والمراد به الترغيب في صالح الأعمال والتحري في الحلال من الأموال، فإن مدار الاعتبار بالجودة والرداءة لا بالقلة والكثرة، فإن القليل المحمود خير من الكثير المذموم، وقد جاء في الحديث "ما قل وكفي خير مما كثر وألهي"(١).

واختلف في المراد بالخبيث والطيب فقَالَ الْحَسَنُ:" الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ" الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ. وَقِيلَ: الْمُطِيعُ وَالْعَاصِي. وَقِيلَ: الرَّدِيءُ وَالْجَيِّدُ، وَهَذَا عَلَى ضَرْبِ الْمِثَالِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، يُتَصَوَّرُ فِي الْمَكَاسِبِ وَالْأَعْمَالِ، وَالنَّاسِ، وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْعُلُومِ وَغَيْرِهَا، فَالْخَبِيثُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ لَا يُفْلِحُ وَلَا يُنْجِبُ، وَلَا تَحْسُنُ لَهُ عَاقِبَةٌ وَإِنْ كَثُرَ، وَالطَّيِّبُ وَإِنْ قَلَّ نَافِعٌ جَمِيلُ الْعَاقِبَةِ.(٢) وتقديم الخبيث في الذكر للإشعار من أول الأمر بأن القصور الذي يُنْبىء عنه عدمُ الاستواء فيه لا في مقابِله، فإنه مفهومٌ عدمُ الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادةً ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد، لكن المتبادر اعتبارُه بحسب قصور القاصر(٣).

---

(١) عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة لأبي يعلى والنسائي والعسكري من حديث ابن غزية عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه مرفوعا، انظر: ص: ٥٨٥، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٦) بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٣٢٧).

(٣) تفسير أبي السعود (٢/ ٢٩٨).

واختلف في الخطاب هنا في قوله: "**ولو أعجبك كثرة الخبيث**" فقيل: الخطاب للنبي والمراد أمته، فإن النبي لا يعجبه الخبيث، وقيل: المراد به النبي نفسه وإعجابه له: أنه صار عنده عجبا مما يشاهده من كثرة الكفار والمال الحرام وقلة المؤمنين والمال الحلال، وقيل:الخطاب لكل سامع وكل مخاطب(١) وأرى أن الخطاب هنا عام لكل معتبر نظرا لعموم الآية الكريمة وختامها بلفظ الجمع في قوله: "فاتقوا الله".

وهنا سؤال مفاده: لم عبر بـ (لو) الشرطية هنا مع مخالفتها حروف الشرط، فهي لا ترد الماضي مستقبلا كما تفعل حروف الشرط الأخرى، فما سر التعبير بها دون أن يقال مثلا: قل لا يستوي الخبيث والطيب وإنْ أعجبك كثرة الخبيث؟ لعل سر التعبير بها في هذه الآية دون غيرها من حروف الشرط؛ لقصد المبالغة والتأكيد في نفي المساواة بين الطيب وبين الخبيث(٢) والخطاب في قوله: "**فاتقوا الله يأولي ؟ لعلكم تفلحون**" خاص بأصحاب العقول، يقول أبو حيان: "وخصّ الله تعالى الخطاب والنداء بأولي ؟؛ لأنهم المتقدمون في تمييز الطَّيب والخبيث فلا ينبغي لهم إهمال ذلك"(٣). وأرى ــ والله أعلم ــ أنه خطاب عام فهو وإن كان بلفظ الخصوص إلا أنه يراد منه العموم للناس جميعا."والجملة جواب شرط مقدر، أي إن أردتم الفلاح فاتقوا الله"(٤) وتفريع هذه الجملة على قوله: "**قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو**

(١) ينظر المحرر الوجيز (٢/٢٤٤)، زاد المسير (٢/٤٣٣)، البحر المحيط (٤/٢٧)، تفسير القرطبي (٦/٣١٠).

(٢) تفسير أبي السعود (٢/٣٢٥).

(٣) البحر المحيط (٤/٣١).

(٤) إعراب القرآن وبيانه ٧(/٣٤).

أعجبك كثرة الخبيث"؛ للإيذان بأن الله تعالى يريد منا إعمال النظر في تمييز الخبيث من الطيب، والبحث عن الحقائق، وعدم الاغترار بالمظاهر الخلابة الكاذبة، فإن الأمر بالتقوى يستلزم الأمر بالنظر في تمييز الأفعال حتى يُعْرَف ما هو تقوى وما هو العكس، ولذلك قال هنا: "**يأولي** ؟" فخطاب الناس بصفة ؟ دون غيرها من الصفات؛ للإيماء إلى أن خلق العقول فيهم يمكنهم من التمييز بين الخبيث والطيب لاتباع الطيب ونبذ الخبيث(١) وقوله: "**لعلكم تفلحون**" أي راجين أن تنالوا الفلاح، والفوز بالثواب العظيم والنعيم المقيم. والجملة تعليل للأمر بالتقوى، ولذلك فصلت عما قبلها، وفي هذه الجملة تقريب لحصول الفلاح بهم إذا اتقوا هذه التقوى التي منها تمييز الخبيث من الطيب، وعدم الاغترار بكثرة الخبيث وقلة الطيب في هذا"(٢).

والسياق يتحدث عن الحلال والحرام في الصيد وفي الأطعمة، ثم تأتي هذه التفرقة بين الخبيث والطيب لأن الحلال طيب والحرام خبيث، فالمناسبة حاضرة لذكر الخبيث والطيب في هذا السياق، إنهما لا يستويان، ولو كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب، ففي الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف وما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها علي اعتدال وأمن من العاقبة في الدنيا والآخرة، والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقابة القلب يختار الطيب علي الخبيث فينتهي الأمر إلي الفلاح في الدنيا والآخرة(٣). ثم تذيل الآية بالأمر بالتقوى لأولي ؟ حتى تكون التقوى سبباً في الفلاح في الدارين.

---

(١) التحرير والتنوير (٧/٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٧/٦٤).

(٣) الظلال (٢ / ٩٨٣).

المطلب الثالث
النهي عن أكل الربا

يعد النهي عن أكل الربا من مقومات فلاح المجتمع؛ إذ إن جريمة الربا تعد من أعظم الجرائم التي تهدد حياة الفرد والمجتمع، وقد شن القرآن الكريم حملة رادعة علي الربا وآكليه في أكثر من موضع من سوره الكريمة المكية والمدنية، والحديث عن الربا متعدد الأغراض إلا أننا نقتصر في الحديث عن تحريمه على النقاط التالية: **أولا:** معنى الربا لغة وشرعاً مع بيان مراحل تحريمه. **ثانيا:** أضرار الربا. **ثالثا:** أثر اجتناب الربا في فلاح المجتمع. **رابعا:** تفسير الآية التي نصت على فلاح من اجتنب الربا.

أولاً: معنى الربا لغة وشرعا

الربا لغة: بمعني الزيادة والنمو والارتفاع، وفي القاموس: ربا يربو ربوا وربا: زاد ونما(١) وأصله الزيادة إما في الشيء كقوله تعالي "**اهْتَزَّت وربَتْ**" (فصلت:٣٩) وإما في مقابله كدرهم بدرهمين فقيل هو حقيقة فيها، وقيل هو حقيقة في الأولي مجاز في الثانية(٢).

وشرعاً:- لقد اختلفت عبارات الفقهاء في تعريفه على تقارب في المعنى، وهناك تعريف جامع مانع وهو: عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو تأخير في البد لين أو

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي (٤ / ٣٣٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٢) انظر فتح الباري (٣ / ٢١٧).

أحدهما([1]) وهذا تعريف له بنوعيه الفضل والنسيئة، والمناسبة بين المعنيين واضحة إلا أن المعني الشرعي أخص من المعني اللغوي؛ لأنه يشمل الزيادة في كل شيء، أما المعني الشرعي فهو يعني الزيادة في أشياء مخصوصة، قال الراغب: الربا: الزيادة على رأس المال لكن خص في الشرع بالزيادة على وجه دون وجه وباعتبار الزيادة قال تعالى "**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يربو عند اللَّهِ**" (الروم:٣٩) ونبه بقوله تعالى "**يمحق اللهُ الرِّبِي ويربي الصَدَقات**" (البقرة:٢٧٦) على أن الزيادة المعقولة المعبر عنها بالبركة مرتفعة عن الربا، ولذلك قال في مقابلته "**وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**" ولقد حرم الإسلام الربا لأنه لا يتفق مع نظام الإسلام الاقتصادي الذي يرتبط بنظام الأخلاق الإسلامية، التي منها عدم الاستغلال، والربا نظام يخالف كل النظم الاقتصادية من رأسمالية أو شيوعية، كما حرم الإسلام الربا لحفظ المال من الضياع، ولئلا تزيد أموال الدائنين بدون عمل ولا كفاح([2]).

المراحل التي مر بها تحريم الربا:

لما كانت جريمة الربا منتشرة ومتأصلة عند بعض الناس في الجاهلية وكذا في صدر الإسلام، فقد بدأ التشريع الإلهي بعلاج ذلك

---

(١) مغني المحتاج إلي معرفة معاني ألفاظ المنهاج للشر بيني الخطيب ٢ / ٢١ مطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده.

(٢) مقومات الحياة من القرآن ا.د:إبراهيم الدسوقي خميس ص: ٢٢٤، دار الصحوة للنشر، ط: ١٩٨٥.

المرض والقضاء على هذه الجريمة شيئاً فشيئاً جريا على سنة التدرج في تحريم بعض الخبائث التي ابتليت بها بعض النفوس.

هذا، والمتتبع لآي القرآن الكريم يجد أن تحريم الربا قد مر بأربع مراحل:

الأولى: وفيها بدأ القرآن بالتنفير من التعامل بالربا ببيان عدم جدواه عند الله، وأن عاقبته ليست محمودة، وأولى بالعاقل أن يستخدم ماله فيما ينفعه ويضاعف ثوابه كالزكاة وفي هذا نزل أول ما نزل بشأن الربا **قوله** "**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**" وهذه الآية ليس فيها ما يشير إلى تحريم الربا، وإنما تشير إلى بغض الله له، وأنه ليس له ثواب عند الله.

الثانية: وفيها حذر الحق تعالي من التعامل بالربا ونسب ذلك إلي الظلم، وأنذر من يتعامل به بالعذاب الأليم في الآخرة فقال جل شأنه: "**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ**" (النساء:١٦٠، ١٦١) وهو تحريم بالتلويح لا بالتصريح، لأنه حكاية عن جرائم اليهود، وليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن الربا محرم على المسلمين.

الثالثة: وفيها تحريم صريح للربا، بيد أنه تحريم جزئي لا كلي لأنه تحريم لنوع من الربا الذي يسمي "الربا الفاحش" وهو الربا الذي بلغ الذروة العليا في الشناعة والقبح، وبلغ في الإجرام النهاية العظمى، حيث كان الديْن فيه يتزايد حتى يصبح أضعافاً مضاعفة يضعف عن سداده كاهل المستدين الذي استدان لحاجته وضرورته، وفي هذا السبيل

نزل قوله تعالي "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً**" (آل عمران:١٣٠) .

الرابعة: وفيها أوشك القضاء على تلك الجريمة وقاربت النفوس أن تقلع عن ذلك التعامل الخبيث وتستجيب لتحريم الربا تحريماً باتاً، شدد الإسلام في تحذيره من تلك المعصية، واستخدم أقسي أنواع الزجر، ونزل التحريم القطعي الكلي الذي لا فرق فيه بين ربا قليل أو كثير، وكانت آخر الآيات نزولا وفيها يقول تعالى "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**"(١) وبهذا يتضح لنا سر التشريع الإسلامي في معالجة الأمراض الاجتماعية التي كان عليها العرب في الجاهلية بالسير بهم في طريق التدرج.

ثانيا: أضرار الربا

قبل أن نعرض لبيان أضرار الربا نوضح أولاً حالة المرابي وعقوبته ومآل أمواله في الدنيا والآخرة ففي الدنيا يصاحبه وسواس دائم وقلق مفزع واضطراب مستمر؛ لأنه أودع ثروته بين أيدي الناس يراقبهم ولا يشاركهم في خسارتهم كما يشاركهم في كسبهم ومغنمهم بل ليحافظ علي أمواله التي تتضاعف سنويا بدون وجه حق لكنها في الوقت ذاته قد محقت بركتها.أيضاً فإن سمعة ذلك المرابي تسوء ويصحبها العار في الدنيا، ويفقد احترام الناس لأنه ارتكب جريمة شنيعة بشعة تنفر منها الطباع السليمة ويأباها أصحاب الضمائر الحية ، وتمقته النفوس الزكية القانعة بما شرعه الله لعباده وقسمه لهم، وأوضح ما يدل

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام لمحمد علي الصابوني (١ / ١٩٠، ١٩١) بتصرف، ط دار زاهد.

علي قبح تلك الجريمة وسوء عاقبتها أن أصحابها يتعرضون لحرب من الله ورسوله، وأني لهم أن يطيقوا ذلك؟ وقد شنع الرسول (ﷺ) علي التعامل بالربا ونبه علي مكانه المشئوم بين الكبائر وذلك حين لعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء.(١) أما في الآخرة فقد وصف الله حالة المرابي وصفاً دقيقاً مناسباً فقال جل شأنه "**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**" (البقرة:٢٧٥).

ولم يبلغ من تفظيع أمر من أمور الجاهلية أراد الإسلام إبطاله ما بلغ من تفظيع أمر الربا ولا بلغ من التهديد في منكر من المنكرات كما بلغ في شأن الربا، فهو جريمة الجرائم، وأساس المفاسد وأصل الشرور والآثام، وهو الوجه الكالح الطالح الذي يقابل الصدقة والبر والإحسان؛ إذ إن الصدقة عطاء وسماحة وطهارة وزكاة وتعاون وتكافل، والربا شح وقذارة وجشع وأثرة الصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه فلا عجب إذا أن يعده الإسلام أعظم المنكرات والجرائم الاجتماعية والدينية، وأن يعلن الحرب على المرابين وذلك للأضرار والمساوئ التي تترتب عليه، ويمكننا أن نجمل هنا بعض هذه الأضرار في فقرات:

---

(١) أخرجه أبو داو د في كتاب البيوع – باب في آكل الربا وموكله (٣ / ٦٢٨) دار الفكر والترمذي في كتاب البيوع باب في أكل الربا (٢ / ٣٤٠) وقال: حديث حسن ط: دار الفكر.

أولاً: المضار الخلقية:- أما تأثيره من الناحية الخلقية "فإن الربا جشع وشره واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان استغلال تأباه الأخلاق الكريمة والفطر السليمة وقواعد السلوك المستقيم، فالمرابي يستغل حاجة أخيه الفقير واحتياجه إلي المال فيفرض عليه ما شاء من أرباح، والإسلام لا يرضي أن تقوم علاقات الناس في هذه الحياة علي أساس من المادية التي تتنكر لقواعد الأخلاق الفاضلة وآداب السلوك، وإنما يريد أن تقوم علاقتهم علي أساس من الفردية"(١) كذلك يقتل الربا نوازع الخير في الإنسان، ويجعل المجتمع فاقداً للعطف والرحمة والشفقة، متخبطاً في حياته كما يتخبط الذي مسه الجنون ويصير عضوا غير صالح في المجتمع الإسلامي، كما يشتمل الربا علي حرمان المرابي من رضي الله ورسوله ويبوء بلعنة الله ويعود بالعذاب الأليم في الآخرة والمحق وإعلان الحرب عليه في الدنيا(٢).

ثانياً: المضار الاجتماعية:-

ويتمثل في الإضرار بالمجتمع المسلم كمجتمع قوي متماسك الأطراف مترابط اللبنات يمثل في حالته المثلي للجسد الواحد الذي إن اشتكي منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر "أما الربا فيجعل الأفراد في الجماعة أو القطاع من الأمة الذين لا تؤرقهم الآلام إخوانهم وأوجاعهم ومصائبهم هذه المجموعة تمثل العضو الأشل الذي

---

(١) نظرة الإسلام إلي الربا أ / محمد أبو شهبة ص ٢٥ ط الشركة المصرية للطباعة والنشر ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣.

(٢) حكمة الإسلام في تحريم الربا ليوسف حامد العالم ص٦٣ ط دار الصحوة ط الثانية ١٤٠٧.

عدم فيه الإحساس وانقطعت روابطه في الجسد، ومثله كمثل الحمار الذي يدور بالرحى ذلك أن اهتمام المرابي وتطلعاته وغاياته تدور كلها حول مصالحه الذاتية، فلا تراه يحزن لدموع الثكالى ولا لأوجاع اليتامى([1]) ويمثل الدين الإسلامي أقوي صلة وأعظم رابطة تربط الأفراد مع بعضها في مجموعة واحدة أما في حالة الربا "فلا يكاد يختلف اثنان في أن المجتمع الذي يتعامل أفراده فيما بينهم بالأثرة والأنانية ولا يساعد فيه أحد غيره إلا أن يرجو منه فائدة راجعة علي نفسه، ويكون عوز أحد ما وضيقه وفقره فرصة يغتنمها غيره للاستثمار وتكون مصلحة الطبقات الغنية الموسرة فيه مناقضة لمصلحة الطبقات المعدمة، هذا المجتمع لا يمكن أن يقوم أو يظل قائماً علي قواعد محكمة أبداً ولا بد أن تبقي أجزاءه مائلة للتفكك في كل حين"([2]). وهكذا يؤثر الربا علي المجتمع المسلم فيقطع أواصره ويهدم بنيانه ويقوض ما بين أطرافه من صلات ووشائج ويهدم الحياة الاجتماعية للأمة الإسلامية ومن جانب آخر فقد فتح أبواب البر في وجه المسلم ليتزود لآخرته فيقرض المحتاجين بلا فائدة، وييسر عليهم ابتغاء مرضات الله، وفي هذا ما يشيع التآلف والمحبة والإخاء

ثالثاً: المضار الاقتصادية:-

إن الحياة الاقتصادية تتأثر تأثراً سلبياً كبيراً إذا تعامل المجتمع بالربا، وكعهدنا بكل محرم فإنه ما حرم إلا لأضراره ومفاسده وآثاره السيئة في كل الجوانب وعلي كل الأصعدة فأضراره الخلقية تؤثر في

(١) الربا لعمر الأشقر ص ١١٢.

(٢) الربا لأبي الأعلى المودودي ص ٥٠ ، ٥١ ط الدار السعودية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

خلق من يتعامل بالربا، أما الأضرار الاقتصادية التي تصيب المجتمع الذي يتعامل بالربا "فإن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة وقد بلغ من سوئه أن طريق الربا يشجع أصحاب الأموال علي القعود وترك التفكير في المشروعات المفيدة لأنه ما دام الربح ممكناً بل مضموناً فلم التعب وبذل الجهد لزيادة الإنتاج مما يؤدي إلي تعطيل الكثير من المشروعات النافعة الضرورية، وتوقف تقدم الإنتاج وهذا معناه تأخر الأمة"(١) يضاف إلى ما تقدم أن فيه تعطيل المواهب الناشئة لأن صاحب رأس المال لما وجد السبيل ميسرة للربح المضمون بالقرض الربوي فإنه لن يخوض غمار العمل، وبهذا يعجز الناشئون عن شق طريقهم للعيش المستقل الموفور الكرامة المحاط بحوافز العمل النافع. وأيضاً فإن الربا صادم نظام العمل المؤدي إلي الكسب المشروع والذي يقضي بتعرض العامل لأحد الأمرين الربح أو الخسارة جريا علي قاعدة (الغرم بالغنم) والربا عكس ذلك تماماً فالربح مضمون دونما عمل أو مساهمة في تحمل مغارم السعي للربح.كما أن النظام الربوي يوسع الفجوة بين طبقات الناس، ويؤدي إلي اختلال التوازن بينهم ويوجد طبقة أنانية جشعة تجمعت بين أيديها ثروات ضخمة لا يقدمون لمجتمعهم نفعاً، وبذلك يزداد الغني غنى والمحتاج فقراً(٢).

(١) ينظر: اقتصادنا لمحمد باقر الصدر ص ٦٥٦ ، ٦٥٧ دار الفكر ط الثالثة ١٩٦٩ م.

(٢) انظر التدابير الواقية من الربا د/ فضل إلهي ص٧٥ ط مكتبة المؤيد ط الثانية ١٤١٢ هـ.

ثالثا: أثر اجتناب الربا في فلاح المجتمع:-

إن المجتمع المسلم يقوم علي التعاون بين الناس، والتعامل بالربا يقطع هذه الوشيجة التي تربط بين أطراف المجتمع، والمجتمع المسلم إذا أراد أن ينأى بنفسه عن الخسران والهلاك، وبالتالي يسمو بنفسه إلي الفلاح والسعادة فعليه أن يتجنب التعامل بالنظام الربوي حتى يتحقق في هذا المجتمع المسلم قول الحق "**وَتَعَاونُوا عَلَي البِرِّ والتقوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَي الإِثْمِ وَالعُدْوَان**" (المائدة:٢) يقول الأستاذ سيد قطب مبيناً أثر اجتناب الربا في فلاح المجتمع: "ما من مجتمع قام علي التكافل والتعاون الممثلين في الصدقات المفروض فيها والمتروك للتطوع، سادته روح المودة والحب والرضى والسماحة والتطلع إلي فضل الله وثوابه دائماً والاطمئنان دائماً إلي عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها ما من مجتمع قام علي هذا الأساس إلا بارك الله لأهله – أفراداً وجماعات في مالهم ورزقهم وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم"(١) ونستطيع أن نجمل هنا بعض الآثار التي تترتب علي اجتناب الربا والتي لها أعظم الأثر في فلاح المجتمع.

أولاً: في الدنيا

١- أن المتصدق والممتنع عن أكل الربا يزداد جاهه وذكره الجميل وميل القلوب إليه واطمئنان النفوس إليه، وفي ذلك من أسباب تيسير أموره ما يشهد به كل خير.

٢- أن محبة الناس إليه تدفعهم إلى معاونته في كثير من معاملاته وقضاء مصالحه فتفتح له أبواب الخير.

---

(١) الظلال (١ / ٣٢٨).

٣- من كان لله كان له، وقد روي في الحديث"ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما:اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً(١).

ثانياً: في الآخرة:-

ورد أن الله تعالي يقبل الطيب من الصدقات، ويأخذه بيمينه، فيربيها كما يربي أحدنا مهره أو فلوه حتى إن اللقمة تصير مثل أحد، وورد في القرآن الكريم قوله تعالي "**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**" (البقرة:٢٦١)(٢).

٤- تفسير آية آل عمران "لقد تولت آية آل عمران بتعليق حصول الفلاح على النهي عن أكل الربا فقال تعالي "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضاعَفة واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تفلحُونَ**" روي عن عطاء في سبب نزولها أنه قال: كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون فنزلت الآية(٣).

وعلاقة هذه الآية بما قبلها: أنه لما نهى الله تعالى المؤمنين في الآيات المتقدمة عن موادة الكفار واتخاذهم أخلاء وكانت أكثر معاملات الكفار بينهم قائمة على الربا، نهى المؤمنين في هذه الآية عن الربا"(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الزكاة - باب قول الله تعالي "فأما من أعطي واتقي" (١ / ٣٨٢).

(٢) تفسير آيات الأحكام للسايس (١/ ١٦٥).

(٣) جامع البيان (٤/ ٥٥) ٢٦١٠.

(٤) البحر المحيط ٣(/٥٧).

والخطاب في الآية خاص بالمؤمنين، ولكن ما سر نداء المؤمنين بـ (يا) الموضوعية لنداء البعيد، والله (ﷻ) قريب منهم، فهو سبحانه أقرب إلى عباده من حبل الوريد؟ ولعل الجواب على ذلك هو الإشعار بعظم الأمر المنهي عنه، وعظم الأمر المنادى له، ولذلك عدل عن نداء القريب إلى نداء البعيد؛ تنبيهًا للمخاطب، ولفتا إلى تلك الأمور المهمة؛ ليبادر إلى الكف والاجتناب عن كل نهي، ويبادر إلى الإجابة والامتثال. والغاية من النداء في النظم القرآني تنبيه المنادى ليصغي إلى ما يُلقى إليه؛ لأن كل ما نادى الله عباده له من أوامرٍ ونواهٍ، وعظات وزواجر.. أمور عظام ومعانٍ يجب أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ([1]).

والتعبير عن التعامل بالربا بالأكل؛ لأنه معظم ما يقصد بالأخذ ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع، ولأن الأكل أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه أدل على معنى الجشع والحرص، والمقصود هو سائر وجوه الانتفاع وقد خص الربا بالذكر لأن الترغيب في الإنفاق في السراء والضراء يتضمن المسارعة في تحصيل الأموال فكان مظنة مبادرة الناس إلي طرق اكتسابه ومن جملتها الربا فنهوا عنه([2]).

وفي معني قوله "أضعافاً مضاعفة" وجهان: **أحدهما:** المضاعفة بالتأجيل أجلاً بعد أجل ولكل أجل قسط من الزيادة علي المحال **والثاني:** ما يضاعفون به أموالهم، وفي هذا دلالة علي أن المخصوص

(١) الكشاف (٢١١/١) بتصرف.

(٢) انظر تفسير أبي السعود (٢ / ٨٤)، روح المعاني (٤ / ٥٥).

بالذكر لا يدل علي أن ما عداه بخلافه لأنه لو كان كذلك لوجب أن يكون ذكر تحريم الربا أضعافاً مضاعفة دلالة علي إباحته إذا لم يكن أضعافاً مضاعفة، فلما كان الربا محظوراً بهذه الصفة وبعدمها دل ذلك علي فساد قولهم في ذلك(١) والسر في الإتيان بقوله: "أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً"؛ تبشيعًا وتفظيعًا للصورة، وتنفيرًا للنفوس لصرفها عن صور الربا كلها. ولا شك أن في تحريم الربا مصالح دينية ودنيوية عظيمة فمن الحكمة في تحريمه البعد بالمسلمين عن الكسل في استثمار المال، وإلجاؤهم إلى التشارك والتعاون في شؤون الدنيا بالطرق المشروعة(٢)".

"**واتقوا الله لعلكم تفلحون**" وقدم النهي عن التعامل بالربا على الأمر بتقوى الله؛ للعناية بالمنهي عنه حيث شمله العام في الأمر بتقوى الله بعد النهي الخاص أولاً، والمعني: واتقوا الله أيها المؤمنون فيما نهاكم عنه ومن جملتها الربا لعل ذلك يكون سبباً في فلاحكم في دنياكم لأن ذلك هو الثمرة الطبيعية للتقوى. والاستنكار الشديد لأكل الربا في هذه الآية وفي غيرها من الآيات دعا العلماء إلى كثير من العناية بما يرى من وثيق العلاقة بين وجوب اتقاء الله في الأمور كلها ويدخل في ذلك دخولا أوليا ما سيقت الآية لأجله وهو تحريم أكل الربا وبين الظفر بما يبتغيه المرء في الدنيا والآخرة وهو الفلاح، قال الإمام الرازي: اعلم أن اتقاء اللّه في هذا النهي واجب، وأن الفلاح يتوقف عليه، فلو أكل ولم يتق زال الفلاح، وهذا تنصيص على أن الربا من الكبائر لا من

(١) أحكام القرآن للجصاص (٢ / ٣٧) دار الفكر.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٨٩/٤.

الصغائر"([1]) أما العلامة الخازن فأفاد بدلالة هذا التنصيص أيضا مما تلا ذلك من قوله تعالى "**واتقوا النار**" الآية حيث قال: "**اتَّقُوا اللَّهَ**" يعني في أكل الربا فلا تأكلوه "**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" أي لكي تسعدوا بثوابه في الآخرة لأن الفلاح يتوقف على التقوى فلو أكل ولم يتق لم يحصل الفلاح، وفيه دليل على أن أكل الربا من الكبائر ولهذا أعقبه بقوله تعالى: "**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِين**" يعني واتقوا أيها المؤمنون أن تستحلوا شيئا مما حرم الله. فإن من استحل شيئا مما حرم الله فهو كافر بالإجماع ويستحق النار بذلك"([2]).

قلت: لقد ربط الله تعالى النهي عن الربا بالإيمان في أول الآية، وبالتقوى والفلاح في آخرها لبيان أن من آمن بالله حقا وامتثل حكم الله، وانتهى عن الربا بكل صوره وأشكاله، واتقى الله في جميع أحواله حينئذ يرجى له الفلاح في الدنيا والآخرة.

غير أن بعض مسلمي هذا العصر يريدون أن يتواروا خلف هذا النص ليحققوا مطالبهم ويشبعوا رغباتهم فتزداد ثرواتهم، ويقولون: إن الربا المحرم هو الأضعاف المضاعفة، أما إذا كانت النسبة يسيرة لا تتجاوز اثنين أو ثلاثة في المائة فهذا غير محرم([3]) وللرد على هؤلاء نقول:- إن الآية التي استدلوا بها لا تدل علي إباحة الربا إذا لم يكن أضعافاً مضاعفة لأن التقيد بقوله "أضعافاً مضاعفة" إنما هو لبيان الواقع أي واقع التعامل لدى أهل الجاهلية، وليس شرطاً يتعلق به الحكم وهذا

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٢).
(٢) لباب التأويل (١/ ٢٨٢،٢٨١).
(٣) الظلال (١ / ٤٧٣).

ما ذكره المفسرون(١) وقد أوضح ابن جرير الكيفية التي يتعاملون بها عند إيراده سبب النزول. وقد مر ذلك مستوفياً، ثم إن في سورة البقرة نص صريح قاطع بحرمة الربا قليله وكثيره، فقال جل شأنه "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**" (البقرة:١٧٨) والقول المخالف لذلك يعتبر خروجاً على النصوص القرآنية وما جاءت به السنة الشريفة، وعلي إجماع المسلمين وجهل بأصول الشريعة الإسلامية التي جاءت لتحفظ الضرورات الخمس.

هذا، وقد أورد صاحب الظلال كلا ما طيباً في الرد علي هذه الشبهة عند تفسيره لهذه الآية(٢) فارجع أخي القارئ الكريم إليه إن شئت تجد بغيتك وطلبتك.

---

(١) انظر جامع البيان (٤ / ٥٩)، فتح القدير (١ / ٣٨١) ، تفسير القرطبي (٤ / ٢١٣)، البحر المحيط (٣ / ٥٧)

(٢) الظلال (١ / ٤٧٣)

المطلب الرابع
اجتناب الخمر والميسر

لاجتناب الخمر والميسر عظيم الأثر في فلاح المجتمع؛ إذ إن الله تعالي علق وقوع الفلاح علي اجتنابهما حيث قال (ﷻ) "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (المائدة:٩٠) ففي هذا النص القرآني يبين الله لنا أن اجتناب الخمر والميسر سبب أصيل وركيزة عظمي في فلاح المجتمع والذي جعلنا نجزم بذلك قوله سبحانه " فاجتنبوه " رجاء أن تفلحوا، وقبل أن تتعرض لتفسير النص القرآني نعرض لبعض الأمور التي تتعلق بها، كتعريف الخمر والميسر، ومراحل التحريم، وأثر اجتناب الخمر والميسر في فلاح المجتمع.

أولاً: تعريف الخمر لغة:-

قيل: سميت الخمر خمراً لأنها تخمر العقل أي تستره وتغطيه، أخذا من خمر إذا ستر ومنه خمار المرأة لأنه يستر رأسها.(١) وقيل: سميت خمراً لأنها تخامر العقل أي تخالطه ومنه قول عمر (رضي الله عنه): الخمر ما خامر العقل(٢) وقيل: سميت خمرا لأنها تركت حتى أدركت واختمرت ومنه اختمر العجين، أي بلغ إدراكه وقيل: سميت بذلك لتغيرها مأخوذة من خمر إذا تغير(٣) وهذه معان متقاربة فالخمر تركت حتى تغيرت ثم

(١) انظر المفردات ص ١٥٩، والنهاية لابن الأثير ص ٣٥٦، المعجم الوسيط ص: ٢٧٩.
(٢) القاموس المحيط (٢ / ٢٣).
(٣) المصباح المنير (١ / ١٨٢).

خامرت العقل أي خالطته ثم خمرته أي سترته([1]) وهو جمع لطيف إذ إن كل تلك الصفات تتحقق في الخمر.**وشرعاً:** عرفه أبو حنيفة بأنه: ماء العنب الذي غلي واشتد وقذف بالزبد: وقال آخرون: كل مسكر سواء من عنب وزبيب وتمر وشعير وذرة قليلاً كان أم كثيراً فما أسكر فهو خمر وما لم يسكر لم يكن خمرا لقوله (ﷺ) "كل مسكر خمر وكل مسكر حرام" ([2]) وهذا رأي الجمهور والشافعية ([3]) والظاهر الذي تؤيده الأدلة هو رجحان رأي الجمهور لعمومها في ذلك.

ثانياً: تعريف الميسر:-

هو اللعب بالقداح، أو هو الجزور الذي كان العرب في الجاهلية يتقامرون عليه، فكانوا إذا أرادوا أن ييسروا اشتروا جزوراً نسيئة ونحروه وقسموه ثمانية وعشرين سهما أو عشرة أسهم، ثم أجالوها فمن خرج سهمه استحق ما توجبه علامة السهم فربما أخفق بعضهم ونجح الآخرون وحظوا بالسهم الوافر. وسمي ميسراً؛ لأن الجزور يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته، وقيل الميسر: النرد أو كل قمار([4]).

هذه عدة معان للميسر وردت في اللغة لكنها في معنى واحد وهو: أن الميسر تمليك المال علي المخاطر "ويشمل ذلك جميع أنواع القمار

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢ / ٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة – باب أن كل مسكر خمر (صحيح مسلم بشرح النووي (٧ / ١٨٩).

(٣) انظر: الأم للشافعي (٦ / ١٩٣)، المدونة الكبرى للإمام مالك (٤ / ٤١٠).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٣ / ١٠١١) دار المعارف – القاهرة.

من اللعب بالقداح والنرد والشطرنج وغير ذلك، وقال الزمخشري: "اشتقاقه من الميسر وهو السهولة لأنه كسب المال من غير كد ولا تعب، أو من اليسار وهو الغني لأنه سلب يساره"(١).

مراحل التحريم:

أراد الإسلام أن يقتلع من النفوس عادة شرب الخمر ولعب الميسر، لكن ذلك لا يتم إلا علي مراحل، وذلك باعتبار أن العادة تحتاج إلي علاج وتريث ورفق وتدرج وتهيئة الظروف المناسبة التي تيسر التنفيذ والطاعة، والمتتبع لآي القرآن الكريم يجد أنه قد ورد في تحريم الخمر ثلاث آيات وورد في تحريم الميسر آيتان:

الأولي: قوله تعالى "**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**" (البقرة:٢١٩) فأوضح الحق تعالي تغليب المضرة والإثم علي المنفعة والثواب، وهذه علة التحريم وإن لم يصرح به هنا إيماء إلى أن تركهما هو الأولى

الثانية:- قوله (ﷻ) "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى**" (النساء:٤٣) فهذه الآية كانت بمثابة التمهيد لتحريم الخمر، إذ إنها حرمته في أوقات الصلاة دون غيرها.

الثالثة:- قوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" وهذه آخر الآيات التي حرمت الخمر والميسر تحريماً قاطعاً. وبعد

(١) الكشاف للزمخشري (١ / ٣٥٦) دار المعرفة - بيروت لبنان.

عرض مراحل التحريم يجدر بنا أن نتساءل بأية آية حرمت الخمر والميسر؟ والجواب: **اختلف العلماء في ذلك علي قولين:**

القول الأول: قال أصحابه إن الخمر والميسر حرما بآية البقرة، ودليلهم أن الآية صرحت برجحان جانب الإثم علي جانب النفع، فقالت وإثمهما أكبر من نفعهما، ومعني رجحان الإثم: رجحان الذنوب والمفاسد التي يستحق بها الشارب العقاب، وهذا يقتضي التحريم.

القول الثاني: وذهب إليه جمهور العلماء أن الآية لا تقتضي التحريم وإنما تقتضي ذم الخمر والميسر فقط وإنما حرما بآية المائدة، ودليلهم: أن الصحابة لم يمنعوا من شرب الخمر بعد نزول هذه الآية ويظهر ذلك جلياً من خلال سبب النزول وهي أنه لما قدم النبي (ﷺ) المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر، فسألوا النبي عنهما فنزلت آية البقرة، فقال: ما حرم علينا، إنما قال: إثم كبير وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم صلي رجل من المهاجرين وأم الناس في المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله تعالي آية النساء، ثم نزلت آية أغلط من ذلك وهي آية المائدة إلي قوله " فهل أنتم منتهون "قالوا: انتهينا ربنا"(١) ورأي الجمهور هو الراجح وذلك لتضافر الأدلة العقلية والنقلية على رجحانه.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ١٢٧ – ١٢٩)، جامع البيان (٤ / ٣٣٦)، تفسير آيات الأحكام د/ القصبي زلط (١ / ٢٨٤، ٢٨٥) والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ / ٣٥١) وقال أحمد شاكر: إسناده ضعيف لضعف أبي معشر نجيح، وجهالة أبي وهب مولي أبي هريرة.

أثر اجتناب الخمر والميسر في فلاح المجتمع

لاجتناب الخمر والميسر أعظم الأثر في فلاح المجتمع وفلاحه ورقيه وسموه، واقترافهما يوقع بالمجتمع في الانحطاط والضياع، ولعل ذلك بعض ما نفهمه من قوله تعالي " فاجتنبوه لعلكم تفلحون " أضف إلي ذلك ما للخمر والميسر من مضار عظيمة ومخاطر جسيمة تؤدي إلي فساد المجتمع وخسارته وفي السطور القادمة أعرض لبعض هذه المضار وتلك الأخطار التي تنشأ من شرب الخمر ولعب الميسر.

أولاً: مضار الخمر:-

١- أنها تضر ضرراً اجتماعياً؛ لأن "الظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم، فكأن الغرض من ذلك تأكيد الألفة والمحبة، إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلي الضد؛ لأن الخمر تزيل العقل وعند استيلائها تحصل المنازعة بين الناس وتلك المنازعة ربما أدت إلي القتل والمشافهة بالفحش وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء"(١) فهي تقطع الروابط الاجتماعية بين شاربها وبين أفراد مجتمعه بدءاً من أقرب الناس إليه وانتهاء بكل الناس.

٢- أنها تضر بالعقل " الذي كرم الله به الإنسان وجعله مناط التكليف، وبالتعدي علي العقل أمكن الاستجابة للشهوات وفعل المنكرات والأثر الذي تحدثه الخمر في شاربها متنوع وكثير من زوال العقل الذي يؤدي إلي فساد إنسانية الإنسان وامتهان كرامته وتفريطه في أغلي ما

(١) مفاتيح الغيب (٤ / ٤٢٤).

يملك وما يميزه عن الحيوان، ثم ما تحدثه من أضرار بأجهزة الإنسان وجوارحه وأعضائه وصحته، وقد نهي الله تعالي عن إيذاء النفس وإيرادها موارد التهلكة"([1]).

ثانياً: مضار الميسر:-

١- أن الإنسان يفقد الإحساس والشعور حال انشغاله باللعب حتى لا يبالي بالمال يخرج من يده إلي غير رجعة طمعاً في أن ينال أكثر منه فإذا رجع خاسراً أكل قلبه الحسد وامتلأت نفسه حقداً وغيظاً علي من سلبه المال أمام عينيه، وربما أدي ذلك إلي قتل خصمه لأنه تسبب في خسارته أو عزم علي قتل نفسه بطريق الانتحار.

٢- تفكك عري الأسرة وتهدم أواصر المحبة فيها بالإضافة إلي تعرضها للذل والفقر بعد الغني والعزة، فكم من أسرة تشردت وتحطمت فافتقرت بعد أن كانت تعيش بين أحضان الثروة والغني بسبب مقامرة أصحابها فكان في ذلك الهلاك والدمار لتلك الأسرة المنكوبة.

٣- إفساد الأخلاق بتعويد الناس الكسل بانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وتركهم العمل كالزراعة والصناعة والتجارة وهي أساس العمران.([2]) وقد نصَّ القرآن صراحة علي حكمة تحريم الخمر والميسر وبين آثار هما السيئ علي المجتمع فقال (ﷻ) "**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**" (المائدة:٩١) ولا شك أن من اجتنب الخمر والميسر، ووقي نفسه هذه المضار، واتصف بأضداد هذه الأمور

(١) أحكام القرآن للجصاص (٢ / ٥٧٧، ٥٧٨).

(٢) تفسير المراغي (١ / ١٤٢) بتصرف.

المذكورة في مضار الخمر والميسر كان من السعداء المفلحين في الدنيا والآخرة.

ونعود إلي تفسير آية المائدة التي انفردت بتعليق حصول الفلاح علي اجتناب الخمر والميسر، فيقول تعالي "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" نداء من الله تعالى لعباده المؤمنين يحمل لهم تحريما صريحا وشديدا لهذه المنكرات الأربعة وهي الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، والأنصاب:حجارة كان المشركون ينصبونها حول الكعبة، ويذبحون قرابينهم التي يتقربون بها إلي معبودا تهم عليها، والأزلام: جمع زلم بفتحتين وهو قطعة من الخشب علي هيئة السهم لكن بلا نصل وكانت الأزلام **ثلاثة:** كتب علي **أحدها:** أمرني ربي، وعلي **الثاني:** نهاني ربي، **والثالث** غُفْل ليس عليه شيء، فإذا أراد أحدهم سفرا أو غزواً أو زواجاً، أو بيعاً، أو نحو ذلك أجال هذه الأزلام فإن خرج له الزلم المكتوب عليه أمرني ربي" مضي لما أراد، وإن خرج المكتوب عليه "نهاني ربي" أمسك عن ذلك ولم يمض فيه، وإن خرج الغُفْل الذي لا كتابة عليه أعاد الاستقسام بالأزلام.([1]).

ثم بين (ﷻ) أن كل ذلك "رجس من عمل الشيطان" قال ابن عباس: أي سخط من عمل الشيطان، وقال سعيد بن جبير: إثم، وقال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان([2]) والمعني: أن هذه الأشياء رجس تعافه النفوس وهو خبيث مستقذر من تزيين الشيطان وإضلاله، وأفرد

(١) تفسير المراغي (٦ / ٥٠، ٥١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٩٤).

الرجس هنا مع أنه خبر عن متعدد لأنه مصدر يستوي فيه القليل والكثير ومثل ذلك قوله تعالي "إِنَّما المُشْرِكُونَ نجس" (التوبة:٢٨) وقيل: لأنه خبر عن الخمر وخبر المعطوفات محذوف ثقة بالمذكور، وقيل: لأن في الكلام مضافاً إلي تلك الأشياء وهو خبر عنه أي إنما شأن هذه الأشياء أو تعاطيها رجس(١) وإنما قال من عمل الشيطان لأنه مسبب عن تسو يله وتزيينه فلا يرد أن هذه المذكورات من عمل الآدمي لا من عمل الشيطان فان قيل مع هذا الإضمار كيف قال من عمل الشيطان وتعاطي هذه الأشياء من عمل الآدمي حقيقة؟فالجواب:إنما أضيفت إلي الشيطان مجازا لأنه أنسب في وجود الفعل بواسطة وسوسته وتزيينه ذلك للفساق(٢) وقوله "**فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" أي اجتنبوا الرجس أو التعاطي المقدر، أو جميع ما سبق راجين فلاحكم أو لكي تفلحوا وتفوزوا بالثواب العظيم." فاقتضت هذه الآية تحريم الخمر من وجهين أحدهما قوله "رِجْسٌ" لأن الرجس اسم في الشرع لما يلزمه اجتنابه ويقع اسم الرجس على الشيء المستقذر النجس وهذا أيضا يلزم اجتنابه فأوجب وصفه إياها بأنها رجس لزوم اجتنابها، والوجه الآخر قوله "**فَاجْتَنِبُوهُ**" وذلك أمر والأمر يقتضى الإيجاب فانتظمت الآية تحريم الخمر من هذين الوجهين"(٣).

---

(١) روح المعاني (٧/ ٢٢).

(٢) حاشية الكرخي على تفسير الجلالين (١/ ٢٨٠) مخطوط بمكتبة الأزهر برقم ٢٨٤٧٢ عام، ١٣٢٥ خاص.

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٥٧٧).

ولقد أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بإنما، وقرنا بالأصنام والأزلام، وسميا رجسا من عمل الشيطان تنبيها علي غاية متجهما وأمر بالاجتناب عن عينهما بناء علي بعض الوجوه وجعله سببا يرجى منه الفلاح فيكون ارتكابهما خيبة، ثم قرر ذلك ببيان ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية فقال: "**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**"(١). هذا والمتأمل في الآية الكريمة يجد أنها افتتحت بنداء المكلفين بنداء الإيمان حثا لهم على حسن الامتثال وسرعة الالتزام، ثم ختمت ببيان أن ذلك الامتثال يرجى منه تحقيق الفلاح لصاحبه، فعلق الفلاح بالأمر، كأنه قال: اتركوا ما ذكر رجاء أن تنالوا الفلاح، فتنجوا من السخط والعذاب، وتأمنوا في الآخرة من سوء الحساب، وإذا كان الاجتناب فلاح كان الوقوع في كل ذلك أو بعضه خيبة وبورا وخسرانا.

(١) انظر مفاتيح الغيب (٤ / ٤٢٥)، روح المعاني (٧ / ٢٣) والآية: ٩١ من سورة المائدة.

المطلب الخامس

اجتناب الشـــــــح

يعتبر الشح من الأمراض التي يستحيل معها الألفة والتعاون والحياة الجماعية والإيثار ولخطره حاربه القرآن، وحمل حملة رادعة عليه، محذرا منه ومن شره فقال تعالى "**ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل** هو **شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**" (آل عمران:١٨٠) وقال تعالى "**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**" (التوبة:٣٤: ٣٥) كما نجد السنة المطهرة تعضد القرآن وتؤازره في حملته على آفة الشح وإعلاء شأن من نزه نفسه عنها، فيبين النبي (ﷺ) أن الشح مهلك للمجتمعات ومن أجله سفكت الماء، واستحلت المحارم حيث قال "واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم"(١) وقال أيضا"لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا"(٢).

فالقرآن والسنة يستأصلان من النفوس داء عضالا هو داء الشح الذي به تضيع الحقوق وتتصدع القرابات، وتتفكك الأسر، وتخرب الضمائر، وتهدم القيم ويكثر الطمع وتنتشر الموبقات، لذا أثنى الله تعالى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم (صحيح مسلم بشرح النووي (٣٧٧/٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد- باب الشح حديث رقم ٢٨٢.

على من جاهد نفسه حتى يبرأ منها، وقضى له بالفلاح العام في الدارين، ورتبه على السلامة من هذه الآفة المقيتة فقال تعالى "**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**" (الحشر:٩) والشح في كلام العرب:البخل ومنع الفضل من المال، والعلماء فإنهم يرون أن الشحّ في هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حقّ، ثم روي أن رجلا أتى ابن مسعود فقال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول "وَمَنْ يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، قال: ليس ذاك بالشحّ الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشحّ أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ذلك البخل، وبئس الشيء البخل(١) وقيل: الشح بالضم:البخل مع حرص، والشح أشد من البخل وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل:البخل في أفراد الأمور وآحادها والشح عام والشح في آيتنا هذه: من أخرج زكاته، وعف عن المال الذي لا يحل له فقد وقى شح نفسه(٢) ولاشك أن تذييل الآية بهذه الجملة الشرطية أي: ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" في غاية الحسن، ومدح للأنصار بما هو غاية لتناوله إياهم تناولا أوليا، وفي الإفراد أولا والجمع ثانيا رعاية للفظ "**من**" ومعناها، وإيماء إلى قلة المتصفين بذلك في الواقع عددا وكثرتهم في المعنى(٣).

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ٤٣).

(٢) لسان العرب (٤/ ٢٢٠٤).

(٣) روح المعاني (٢٨/ ٥٤).

واسم الإشارة لتعظيم هذا الصنف من الناس، وصيغة القصر المؤداة بضمير الفصل للمبالغة لكثرة الفلاح الذي يترتب على وقاية شح النفس، حتى كأن جنس المفلح مقصورا على ذلك الموقى([1]).

ويلخص لنا صاحب الظلال كيف أن الوقاية من الشح والتنزه عنه فلاح عظيم فيقول (رحمه الله): فهذا الشح شح النفس هو المعوق عن كل خير لأن الخير بذل في صورة من الصور، بذل في المال، وبذل في العاطفة، وبذل في الجهد، وبذل في الحياة عند الاقتضاء. وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائما أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطي، ومن يوق شح نفسه، فقد وقي هذا المعوّق عن الخير، فانطلق إليه معطيا باذلا كريما، وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه"([2]) وقد ذكر الله تعالى هذه الجملة الشرطية في سورة التغابن في سياق آخر توكيدا للمعنى، وتقريرا للحكم فقال تعالى "**فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**" (التغابن:١٦) فذكر الشح هنا بعد التحذير من فتنة الأزواج والأولاد، ثم الأمر بالتقوى والسمع والطاعة والإنفاق، كل ذلك يشعر بأن أكثر قضايا الزوجية منشؤها من جانب المال حرصا عليه أو بخلا به، حرصا عليه بالسعي إليه بسببهم، فقد يفتن في ذلك، وشحا به بعد تحصيله فقد يعادونه فيه والعلاج الناجع في ذلك كله الإيثار وتوقي الشح وفي إضافة الشح إلى النفس مع إضافة الهداية إلى القلب سر لطيف، وهو أن الشح جبلة البشرية والهداية منحة إلهية، والأولى قوة حيوانية، والثانية قوة روحية، فعلى المسلم أن يغالب بالقوة الروحية ما جبل عليه من قوة

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٩٥).
(٢) الظلال (٦/ ٣٥٢٧).

بشرية لينال الفلاح والفوز(١) وقيل: لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل(٢) وعلى ذلك فإن صرف المال في وجوه الإنفاق المشروعة يقي صاحبه من الشح المنهي، وحينئذ يكون الإنسان قد حقق لنفسه الفلاح بأبلغ وجه وآكده في الدارين.ولما كان ذلك الفلاح فلاحا عظيما جيء في جانبه بصيغة الحصر، بطريقة تعريف المسند وهو قصر جنس المفلحين على جنس الذين وقوا شح أنفسهم، وهو قصر ادعائي للمبالغة في تحقق وصف المفلحين الذين وقوا شح أنفسهم نزل الآن فلاح غيرهم بمنزلة العدم.

(١) أضواء البيان(٨/ ٢٠٥).

(٢) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للبر وسوي(٤/ ٢٧٤) اختصار الشيخ الصابوني،نشر:دار الصابوني ط:١، ١٩٨٨

المطلب السادس
طلب الوسيلة والجهاد في سبيل الله

وقد تحدث الله عن هذا المقوم في قوله تعالي "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (المائدة:٣٥) فهذا النص القرآني قد احتوى على **ثلاثة أوامر: الأول:** تقوي الله تعالي، ولقد سبق الكلام عن ذلك آنفا. **الثاني:** طلب الوسيلة إلي الله تعالي **الثالث:** الجهاد في سبيل الله.

ونستهل حديثنا عن هذا المقوم ببيان معنى الوسيلة وذكرها في القرآن وتحقيق القول فيها فنقول وبالله توفيقي وتوفيقك:- الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل والوسائل والتوسيل والتوسل واحد، يقال: وسّل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسل إليه بوسيلة، أي تقرب إليه بعمل(١) وقال الراغب: "الوسيلة: التوصل إلي الشيء برغبة وهي أخص من الوصيلة لتضمنها معنى الرغبة، وحقيقة الوسيلة إلي الله: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة"(٢) وعلي ذلك تكون الوسيلة هي طلب القربى إلي الله.

هذا، وقد اختلفت عبارات المفسرين في المراد بالوسيلة فمنهم من فسرها بالحاجة إلي الله، ومنهم من فسرها بالقربة، ومنهم من فسرها بالمحبة، وقد نقل هذه الآراء كثير من المفسرين عن الأئمة في تفسير الوسيلة بهذه المعاني التي أشرنا إليها، قال ابن عباس: الوسيلة الحاجة

(١) الصحاح (٥/ ١٨٤١).
(٢) المفردات ص: ٥٢٣، ٥٢٤.

وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه، قال ابن زيد: الوسيلة هي المحبة قال: أي تحببوا إليه وقال السدي: هي المسألة والقربة([1]).

ومعني القربة إلي الله هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه علي وفق ما جاء به محمد (ﷺ) بإخلاص في ذلك لله تعالي؛ لأن هذا وحده هو الطريق الموصل إلي رضى الله تعالي، وقيل: ما عنده من خير الدنيا والآخرة. قال ابن كثير بعد أن ذكر مثل هذه الأقوال التي ذكرناها: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه"([2]) ونقله عنه القاسمي في تفسيره([3]) فالوسيلة: لفظ عام يشمل جميع الأعمال الصالحة وسائر القرب التي يتقرب بها العبد إلى ربه ليظفر بحبه ورضاه والقرب منه وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين([4]) والوسيلة أيضاً: علم علي أعلي منزلة في الجنة وهي منزلة الرسول (ﷺ) وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلي العرش، وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي (ﷺ) قال: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة"([5]) والعبارة

(١) انظر جامع البيان (٤ / ٥٦٧)، المحرر الوجيز (٢ / ١٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٥٤).

(٣) محاسن التأويل (٤/ ١٣٨).

(٤) ينظر: الكشاف (١/ ٣٣٦)، المحرر الوجيز(٢/ ١٨٦)، تفسير البيضاوي(٢/ ٨٦).

(٥) صحيح مسلم – كتاب الصلاة – باب استحباب القول قول مثل المؤذن لمن سمعه (شرح النووي (٢ / ٣٢٠ ، ٣٢١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما).

صالحة لكل هذه الوجوه التي تؤدي إلى صلاح القلب وحياة الضمير وتنتهي إلى الفلاح المرجو في الدنيا والآخرة.

قال صاحب المنار: وتفسير النبي (ﷺ) للوسيلة يؤيده قول نقلة اللغة أن من معانيها المنزلة عند الملك، فمن دعا الله أن يجعلها للنبي كافأه النبي (ﷺ) بالشفاعة وهي دعاء أيضاً والجزاء من جنس العمل، فالوسيلة في الحديث: اسم لمنزلة في الجنة معينة، وفي القرآن: اسم لكل ما يتوصل به إلي رضا الله من علم وعمل.

هذا، ولم يؤثر عن صحابي ولا تابعي ولا أحد من السلف أن الوسيلة إلي الله تبتغي بغير ما شرعه الله من الإيمان والعمل ومنه الدعاء إلا كلمة رويت عن الإمام مالك لم تصح عنه بل صح عنه ما ينافيها ثم يقول: وقد حدث في القرون الوسطي التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين أي تسميتهم وسائل إلي الله والإقسام على الله بهم، وطلب قضاء الحاجات ودفع الضر وجلب النفع منهم عند قبورهم وشاع هذا وكثر حتى صار كثير من الناس يدعون أصحاب القبور في حاجاتهم مع الله، وأن بعض المصنفين زعم أنهم يسمعون، ويستجيبون للداعي، والعوام يأخذون بمثل هذا القول المخالف لقول الله لعموم الجهل(١).

وقد حقق شيخ الإسلام ابن تيمية الموضوع بجميع فروعه، فقال: إن لفظ التوسل يراد به **ثلاثة معان: أحدها:** التوسل بطاعته (ﷺ) فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به. **ثانيها:** التوسل بدعائه وبشفاعته في حياته، ويوم القيامة يتوسلون بشفاعته **والثالث:** التوسل به بمعني الإقسام على

(١) تفسير المنار (٦ / ٣٠٧).

الله بذاته، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة تفعله في الاستسقاء ونحوه لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عن من ليس قوله حجة"(١) ومن أراد المزيد حول هذه المسألة فليرجع إلى تحقيق العلامة الألوسي فقد أفاد وأجاد.

وأما الحديث عن الجهاد فيتضمن النقاط التالية: **أولا:** تعريف الجهاد **ثانيا:** المراحل التي مر بها الجهاد **ثالثا:** أثر الجهاد في سبيل الله في فلاح المجتمع.

أولاً: تعريف الجهاد: الجهاد لغة:

مشتق من الجهد؛ وتأتي على معان، منها: الوسع والطاقة؛ ومنه قوله تعالى: "**وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ**" (التوبة:٧٩) ومنها: القتال مع العدو؛ ومنه قوله تعالى: "**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**" (الحج:٧٨) ومنها: المحاربة ضد الكفار، واستعداد كل فرد حسب قدرته وكفايته واستفراغ ما في الوسع، ومنه قوله تعالى "**وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**" **(النور:٥٣)**(٢).

والجهاد في الاصطلاح: استفراغ الوسع والطاقة في مدافعة العدو، وهو ثلاثة أنواع: جهاد العدو ظاهرا وهو الغزو لقتال الكفار لتكون كلمة

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ٢٠١).

(٢) مختار الصحاح للرازي، ص٧٤، المصباح المنير للفيومي، ص٧٢، تاج العروس للزبيدي، ٥٣٧/٧.

الله هي العليا، وجهاد الملحدين بالحجج الظاهرة، وجهاد العدو باطنا، وهو جهاد النفس وجهاد الشيطان(١).

وأما عن المراحل التي مر بها الجهاد فلقد مر في فرضيته بمراحل متعددة، فالجهاد لم يفرض إلا في المدينة والآيات المكية التي وردت فيها لفظة الجهاد كان المقصود بها جهاد النفس، ولقد مر الجهاد بمراحل منها: **الأولي:**- كان الجهاد في صدر الإسلام مقتصراً علي الدعوة السلمية مع الصمود في سبيلها للمحن والشدائد وكانت هذه المرحلة دعوة إلي تربية النفس علي الصبر والثبات. **الثانية:** الإذن لهم في القتال، ونلمح هذا في قوله تعالي "**أَذن للَّذينَ يُقَاتلُونَ بِأَنَّهُم ظلَمُوا**" (الحج:٣٩) ثم تذكر الآية التالية السبب الذي أذن من أجله للمؤمنين في القتال فتقول "الَّذينَ **أُخْرَجُوا منِ ديارِهم بِغيرِ حَقٍّ إلاَّ أن يَقُولُوا ربنا الله**" **الثالثة:** مشروعية رد الاعتداء بمثله يقول تعالي "**فَمَن اعْتَدي علَيْكُم فَاعتدُوا علَيْه بِمثْلِ مَا اعتدَي علَيْكُم**" (البقرة:١٩٤) **الرابعة:** مشروعية قتال كل من وقف عقبة في طريق إقامة المجتمع الإسلامي علي ألا يقبل من الملا حدة والمشركين. وهذه هي المرحلة الأخيرة التي استقر فيها حكم الجهاد في الإسلام قال تعالي "**وَقَاتلُوا المُشْركينَ كَافَّة كَمَا يُقاتلُونَكم كَافَّة**" (التوبة:٣٦)(٢).

---

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي (١/ ٤٠٥).

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم (٣ / ٧٠) ط المنار الإسلامية ط الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

أثر الجهاد في سبيل الله في فلاح المجتمع

للجهاد في سبيل الله أعظم الأثر في فلاح المجتمع ورقيه وعزته؛ حيث إن الله تعالي قد وعد المجاهدين في سبيله بالأجر العظيم في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، فهو إما أن ينتصر علي العدو وحينئذ يفوز بأجره في الدنيا وهي الغنيمة التي سُلبت من جيوش الأعداء، وإما أن يستشهد في سبيل الله، وحينئذ يفوز بجنة عرضها السماوات والأرض هذا علي سبيل الأفراد المجاهدين، وأما سبيل المجتمع فالمجتمع الذي يوجد فيه رجال أبطال يدافعون عنه ويزودون عن حماه، ويحاربون أعداء الله يكون مجتمعاً آمناً لا يركن لأحد من أعداء الله ويعيش في عزة ونصرة دائمة، ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن الجهاد في سبيل الله له أعظم الأثر في فلاح المجتمع، ففي سبيل الله وإعلاء كلمة الله تهون الأنفس ويعظم الفداء، وفي سبيل الزود عن الدين والوطن تذلل العقبات، وتحطم الموانع وتنسف السدود، وفي سبيل المثل العليا تطيب الجراح، وتبقي شعار مجد ووسام فخر، وتتبدل الآلام وتتلاشي، وتصير أوراق ورد، وأطياب زهر وأنشودة نصر(١).

وقد أشار القرآن المجيد إلي جزاء المجاهدين في سبيل الله في كثير من آياته والمتأمل في هذه الآيات التي سنذكرها يجد أنها تارة تختم بالفوز العظيم، وتارة أخري تختم بالفلاح وكما هو أسلوب القرآن الكريم حينما يريد أن يرغب في أمر تكليفي فإنما يشير إلي الجزاء المترتب علي أداء هذا الأمر يقول د/ أحمد مهنا عند عرضه لبعض الآيات التي

(١) الجهاد والإسلام في ذروة الإسلام لمحمد حسين سعيد بنجر ص ٣١ ط: دار الفكر العربي.

تذكر جزاء المجاهدين في سبيل الله: "إن شأن الكتاب الكريم دائماً في عدم إغفال الطبيعة البشرية وما يعتريها في بعض الأحيان من تردد وضعف خاصة بالنسبة للتكاليف التي تؤلف المشقة المادية جزءا من مقوماتها، فقد حبب الله المؤمنين في الجهاد بالأسلوب الذي يرضي كثيراً من النفوس"(١).

ومن الآيات التي تحدثت عن جزاء المجاهدين قوله تعالي "**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**" (التوبة:١١١) فالمولي (ﷻ) قد أثاب المؤمنين الذين بذلوا أنفسهم في الجهاد في سبيله ونصرة دينه وضحوا بأموالهم بالإنفاق ابتغاء وجهه بتمليكهم الجنة دار النعيم، يقول صاحب المنار: والآية تمثيل لإثابة الله المؤمنين علي بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بتمليكهم الجنة دار النعيم الأبدي والرضوان السرمدي، تفضل جل جلاله بجعلها من قبيل من باع شيئاً هو له لآخر لطفا منه تعالي وتكريماً لعباده المؤمنين بجعلهم كالمتعاقدين معه كما يتعاقد البيّعان علي المنافع المتبادلة، ثم بين صفة تسليم المبيع وهو أنهم يجاهدون في سبيل الحق ونشر دين الله الموصلة إلي رضوانه تعالي"(٢).

فتأمل أخي القارئ كيف أن هؤلاء الرجال قد عاهدوا الله تعالى علي بيع أنفسهم له جهاداً في سبيله لإعلاء كلمة الحق، وقدموا دماءهم

(١) مقومات الإنسانية في القرآن الكريم د: أحمد مهنا ص ١٢٤. مجمع البحوث الإسلامية.
(٢) تفسير المنار (١١ / ٤٨ ، ٤٩).

الزكية رخيصة في سبيل الله أولئك جزاؤهم إرث الجنة والخلود فيها ينعمون فيها برضوان الله تعالى ولذة النظر إلي وجهه الكريم.

ومن الآيات التي تحدثت عن جزاء المجاهدين، ووصفت الجهاد بأنه تجارة رابحة مع الله وذكرت أن الجهاد سبب لدخول الجنة وسبب للفوز العظيم قوله تعالي "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**" (الصف:١٠: ١٢).

فبين الحق تعالي أن الإيمان بالله والرسول والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس من أسباب النجاة من العذاب، ومن أهم مقومات الفوز العظيم وقمة السعادة الحقيقية ومن دعائم فلاح المجتمع الإنساني الذي يتاجر مع الله تجارة رابحة.

ومن الآيات التي تحدثت عن جزاء المجاهدين قوله تعالي "**الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**" (التوبة:٢٠: ٢٢). ومن الآيات التي تحدثت عن جزاء المجاهدين قوله (ﷻ): "**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**" (النساء:٧٤) وقوله تعالي: "**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**" (محمد ٤: ٦)

كذلك من الآيات الكريمة التي قررت أن المجاهدين في سبيل الله هم أهل الفلاح قوله عز شأنه "**لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**" (التوبة:٨٨، ٨٩) فهاتان الآيتان الكريمتان وردتا في سياق كشف النقاب عن سوءات المنافقين وفضح أمرهم في تخلفهم عن الجهاد مع النبي (ﷺ) وتعللهم بالأعذار الواهية، ثم تبين أن الرسول والذين آمنوا جاهدوا بالمال والنفس، قائمين بالواجب خير قيام هؤلاء لهم منافع الدارين كالنصر والغنيمة في الدنيا والجنة ونعيمها في الأخرى "**وأولئك هُمُ المُفْلِحُونَ**" الفَائِزُونَ بِالمَطَالِب وبسعادة الدارين وكرامة الحياتين(١).

وتكرير اسم الإشارة تنويه بشأنهم وربء(٢) لمكانهم(٣) وقوله "أَعَدَّ لهم جَنَّات تَجري مِن تَحتهَا الأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا" يحتمل أن تكون هذه الجنات كالتفسير للخيرات وللفلاح، ويحتمل أن تحمل تلك الخيرات والفلاح علي منافع الدنيا مثل الغزو والكرامة والثروة والقدرة والغلبة، وتحمل الجنات علي ثواب الآخرة "والفوز العظيم" عبارة عن كون تلك الحالة مرتبة رفيعة ودرجة عالية(٤).

---

(١) روح المعاني (١٠/ ٢٢٨) بتصرف.

(٢) أي: إطلاع لغيرهم على شرفهم، أو إعلاء لمكانهم، كما أفاده ابن منظور في اللسان مادة: ربأ (٣/ ١٥٤٥).

(٣) تفسير أبي السعود(٣/ ١٧٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٦ / ١١٩ - ١٢٠).

وإذا كانت هذه الآيات السابقة قد تحدثت عن جزاء المجاهدين في سبيل الله، وذكرت أن لهم الجنة وأنهم المفلحون السعداء فإن قوله تعالي " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون" فيه إرشاد للمؤمنين إلي ما ينجيهم من العذاب فيجتنبوه، وإلي ما يدنيهم من الرحمة فيعملوا به فيأمرهم بالتقوى، وتجنب ما يوجب سخطه، وتقربوا إليه بفعل ما يحبه، واظفروا بالقرب منه وتحصيل مرضاته وذلك بالعبادات والطاعات، فقوله" اتقوا الله" أمر بترك المعاصي، وقوله "**وابتغوا إليه الوسيلة**" أمر بفعل الطاعات وقيل الوسيلة:الحاجة، وكأن المعنى حينئذ اطلبوا متوجهين إليه حاجكم فإن بيده عز شأنه مقاليد السماوات والأرض ولا تطلبوها متوجهين إلى غيره"([1]).

وقوله تعالي "**وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون**" أي تحملوا الجهد والمشقة في سبيل الله كل ذلك رجاء الفوز والفلاح في المعاش والمعاد، ولذلك ينبغي عليكم أيها المؤمنون أن تجاهدوا أنفسكم بحملها علي أن تعمل وتجاهد الأعداء وتقاتلهم ابتغاء مرضات الله تعالي فيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ حَقّاً وَصِدْقاً، وَاتِّقَاءِ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ، وَذَلِكَ بِعَدَمِ مُخَالَفَةِ شَرْعِهِ، والكف عَنْ إِتْيَانِ مَحَارِمِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ، وَبِأَنْ يَتَقَرَّبُوا إِلَيهِ بِطَاعَتِهِ، وَبِالعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِجِهَادِ أَعْدَائِهِمْ، وَأَعْدَاءِ اللهِ، الخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ، ثم بين لَهُمْ مَا أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَكَرِيمِ المَنْزِلَةِ، فَلَعَلَّهُمْ، إِنْ قَامُوا بِأَمْرِ رَبِّهِمْ، أَنْ يُفْلِحُوا بِالفَوْزِ برضا اللهِ وَجَنَّتِهِ، يقول

(١) روح المعاني (١٢٤/٦).

ابن كثير: لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم والتاركين للدين القويم، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها التي من سكنها ينعم لا ييأس، ويحيى لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه"(١) وقيل المعنى: لكي تسعدوا بالخلود في جنته، لأن الفلاح اسم جامع للخلاص من كل مكروه، والفوز بكل محبوب(٢) وهكذا نرى أن امتثال التقوى وصدق الرغبة في طلب القربة إلى الله تعالى والجهاد في سبيل الله بكل سبيل، كل ذلك سبيل لتحقيق الفلاح في الدنيا والآخرة.

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٥٥).
(٢) لباب التأويل (٢/ ٤٧).

المطلب السابع

الإحسان

وهو في اللغة يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، وقد أحسن إلى فلان. **والثاني:** إحسان في فعله. وذلك إذا علم علماً حَسَناً، أو عمل عملاً حَسَناً، والإحسان أعمّ من الإنعام، والإحسان فوق العدل. وذلك أنَّ العدل هو أن يعطي ما عليه ويأْخذ ما له، والإحسان: أن يعطى أكثر ممّا عليه ويأْخذ أقلّ ممّا له. فالإحسان زائد على العدل، فتحرِّى العدل واجب، وتحرى الإحسان نَدْب وتطوع"(١).

والإحسان في الشرع: هو الإتيان بالمطلوب شرعا على وجه حسن، ولعل أساس التعريف بالإحسان هو العبارة النبوية التي يقول فيها النبي (ﷺ): "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(٢) وقد عبر ابن الأثير عن هذه الكلمات المضيئة بتعبير موجز يقول فيه: "أراد بالإحسان الإخلاصَ وهو شَرْط في صحَّة الإيمان والإسلام معاً. وذلك أنَّ مَن تلَّفظ بالكَلمَة وجاء بالعَمل من غير نيَّة إخْلاص لم يكن مُحْسنا ولا كان إيمانُه صحيحا، وقيل: أراد بالإحسان الإشارةَ إلى المُرَاقَبَة وحُسْن الطاعة فإنّ مَن راقَب اللّه أحْسَن عملَه"(٣) وهو من أفضل

(١) ينظر:المفردات ص:١١٨، بصائر ذوي التمييز(١/ ٦٧٠، ٦٧١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام (١/ ١٥٦) عن أبي هريرة.

(٣) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير(١/ ٩٦٣).

منازل العبودية؛ لأنه لبّ الإيمان وروحه وكماله، وهي جامعة لما عداها من المنازل، وجميعها منطوية فيها"([1]).

ولهذه الأهمية رفع الله تعالى مقام الإحسان، وأعلى قدر المحسنين بأن لهم خيري الدنيا والآخرة، وذلك في كثير من الآيات الكريمات، ومنها ما ذكره الله تعالى في صدر سورة لقمان مبينا بعض صفات المحسنين فيقول سبحانه "**قال تعالى"هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**" (لقمان:٥:٣) فلقد سمى الله تعالى الموصوفين بهذه الصفات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة واليقين بالآخرة سماهم محسنين، وقضى لهم بالهداية، وحكم لهم بالفلاح، وتلك- لعمر الله- شهادة غالية ومنزلة رفيعة.ويفصل الإمام الألوسي القول في هذا المقام فيقول: إن أريد بالمحسنين معنى خاصا أي:المحسنين في الأمور العظيمة في الدين كان ما بعده تفسيرا للمحسنين، وإن أريد بالمحسنين المعنى العام، أي في جميع الأعمال كان المذكور بعده بمنزلة الجميع([2]).

قلت: وهذا من باب ذكر البعض وإرادة الكل، أو الاكتفاء بذكر أشهر أوصافهم؛لأنهم إن حققوا الإحسان في هاته الثلاث فإنهم سيحققون الإحسان في غيرها من باب أولى، أو الأولى لمراعاة حق الخالق جل شأنه، والثانية لمراعاة حق المخلوق، والثالثة إشارة إلى قوة وثبات وبقاء العقيدة الصحيحة.والمتأمل في هذه الآية يجد أنه عبر في إقامة

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٩) بتصرف.

(٢) روح المعاني (٢١/ ٦٦) بتصرف.

الصلاة وإيتاء الزكاة بالجملة الفعلية؛ ذلك لأنهما مما يتجدد ولا يستغرق الأزمان، وعبر عن اليقين بالآخرة بالجملة الاسمية لتميزه عن غيره من الأركان ولإفادة الثبوت والدوام.

ثم عقب الله تعالى على تلك الصفات ببيان الجزاء الأوفى، وهو الهداية والفلاح فقال سبحانه "**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**" وكرر اسم الإشارة؛ تنبيها على عظم قدرهم وفضلهم(١) يقول صاحب الظلال: "ومن هدي فقد أفلح، فهو سائر على النور واصل إلى الغاية، ناج من الضلال في الدنيا، ومن عواقب الضلال في الآخرة وهو مطمئن في رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن في الوجود أولئك المهتدون بالكتاب وآياته، المحسنون المقيمون للصلاة المؤتون للزكاة الموقنون بالآخرة المفلحون في الدنيا والآخرة"(٢) قلت: وهذا هو الأليق بهؤلاء تثمينا لأعمالهم وتقوية لعزائمهم لبقاء استمساكهم بهذا المنهج، وكذا حثا لغيرهم على السير في ركابهم واحتذاء صنيعهم.

ويخبرنا القرآن الكريم أن من صفات المحسنين أنهم معنيون بحقوق الآخرين من ذوي القربى والمساكين وابن السبيل، مخلصون في أداء هذا الحق، يقول تعالى "**فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**" (الروم:٣٨).

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر أنه تعالى هو الباسط القابض، وجعل في ذلك آية للمؤمن، ثم نبه بالإحسان لمن به فاقة

(١) البحر المحيط (٧/ ١٨٣).
(٢) الظلال (٥/ ٢٥٨٤).

واحتياج، لأن من الإيمان الشفقة على خلق اللّه، فخاطب من بسط له الرزق بأداء حق اللّه من المال، وصرفه إلى من يقرب منه من حج، وإلى غيره من مسكين وابن سبيل(١).

والخطاب للنبي (ﷺ) على أنه المقصود أصالة وغيره من المؤمنين تبعا، وقال الحسن: هو خطاب لكل سامع، وجوز غير واحد أن يكون لمن بسط له الرزق(٢) ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجباً لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول، سواء كان زكوياً أو لم يكن، وسواء كان قبل الحول أو بعده، لأن المقصود هنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم(٣) "**ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**" أي ذلك الإعطاء لمن تقدم ذكرهم، من فعل الخير الذي يتقبّله اللّه، ويرضى عن فاعليه، ويعطيهم جزيل الثواب، وأولئك قد ربحوا في صفقتهم، فأعطوا ما يفنى، وحصلوا على ما يبقى، من النعيم المقيم، والخير العميم، وإنما كان هذا العمل خيرا، لما فيه من تكافل الأسرة الخاصة، وتعاونها في السراء والضراء، وتعاون الأسرة العامة، وهى الأمة الإسلامية جمعاء، ولا يخفى ما لذلك من أثر في تولد المحبة والمودة، وفى التكاتف لدفع عوادي الأيام، ومحن الزمان(٤) وفي الحكم بفلاح هؤلاء تعريض بغيرهم ممن ليس على شاكلتهم فمن لم يقم بحق هؤلاء فليس من المفلحين، ومن آتى للرياء والفخر فليس من المفلحين.

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٩٣).

(٢) روح المعاني (٢١/ ٤٤).

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان (١٠/ ٢٥٢).

(٤) تفسير المراغي (٢١/ ٥٣).

المطلب الثامن

الصبر

وقد تحدث الله عن هذا الأساس في خاتمة سورة آل عمران حيث قال تعالى "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" ففي هذا النص القرآني علق الله حصول الفلاح على أربعة أشياء: الصبر، المصابرة، المرابطة، تقوي الله، وقد سبق أن تحدثنا عن التقوى، وبينا أن التقوى مقوم أصيل من مقومات فلاح المجتمع، وأما الحديث عن الصبر والمصابرة والمرابطة فهذه الأمور الثلاثة يمكن أن نجملها تحت خلق الصبر؛ لأنه بالصبر تتأتي المصابرة، وكذلك المرابطة في سبيل الله، فالصبر فضيلة نبيلة من أمهات الفضائل التي تقوم عليها سعادة الفرد والمجتمع وفيما يلي تعريف الصبر وأنواعه، وأثره في فلاح المجتمع، وفضل المرابطة في سبيل الله بإيجاز فنقول:

الصبر لغة: للصبر في اللغة معان متعددة، فيأتي بمعنى الحبس والإمساك والجرأة والثبات واللزوم وجاء في لسان العرب: "وأصل الصبر: الحبس، وصبر الرجل يصبره: لزمه والصبر نقيض الجزع، والصبر الجرأة، ومنه قوله تعالى "**فَمَا أَصْبَرهُم عَلَى النَّارِ**" (البقرة:١٧٥) وسمي الصوم صبرا لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والنكاح"([1]) **وشرعاً**:عرفه العلامة الراغب فقال حبس النفس

(١) اللسان (٤/ ٣٩٤).

علي ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه([1]) وعرفه ابن القيم في مدارجه فقال: حبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، وإنما يصدق ذلك ويكون الصبر علي حقيقته إذا حبس العبد نفسه ووقفها مع سنن الله وآياته في نفسه وفي الآفاق ومع نعم الله عليه([2]).

أنواعه:

اختلفت أنظار العلماء في الكلام عن أنواع الصبر ومجالاته، وأجمعها ما ذكره الدكتور الشرباصي في موسوعة أخلاق القرآن حيث قال في هذا الشأن:" والصبر فضيلة تتعدد مجالاتها، فهناك صبر علي الطاعة، أي استمساك بأدائها، وصبر علي المعصية، أي حرص موصول علي تجنبها، وصبر في الابتلاء، أي حسن احتمال له، فلا بد للمؤمن من صبر علي أداء الواجب، وصبر علي الآثام والخطايا، وصبر بحفظ اللسان عن الفحش وصبر بصيانة القلب والعقل من خواطر السوء، وصبر بحفظ الجوارح والأعضاء من سوء الاستخدام، وصبر عند الشدائد، وصبر في مواطن الجهاد"([3]) وترجع عناية القرآن الكريم البالغة بالصبر إلى ماله من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكملة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقي مادياً ومعنوياً، ويسعد فردياً واجتماعياً، فلا ينتصر دين، ولا تنهض دنيا إلا بالصبر، فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية، فلا فلاح

(١) المفردات ص ٢٨١ وانظر بصائر ذوي التمييز (٣ / ٣٧١).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٦٢).
(٣) موسوعة أخلاق القرآن (١ / ١٩٢).

إلا بالصبر، ولا تتحقق الآمال، ولا تنجح المقاصد، ولا يؤتي عمل أكله إلا بالصبر، فمن صبر ظفر، ومن عدم الصبر لم يظفر بشيء(١).

أثر الصبر في فلاح المجتمع: لقد رتب القرآن الكريم فلاح الدنيا والآخرة علي فضيلة الصبر، فالنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكل خير يحرص عليه الفرد أو المجتمع منوط بالصبر، ومن مظاهر فلاح الصابرين ما يلي:-

١- معية الله تعالي للصابرين يقول تعالي: "**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرينَ**" (الانفال :٤٦) وهي معية خاصة تتضمن الحفظ والرعاية والتوفيق، وليست معية العلم والإحاطة لأن هذه عامة لكل الخلق.

٢- محبة الله لهم، يقول عز من قائل "**واللهُ يُحب الصَّابِرِينَ**" (آل عمران: ١٤٦).

٣- توفيتهم أجورهم بغير حساب لقوله تعالي "**إِنَّمَا يوَفَّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِحِسَاب**" (الزمر:١٠).

٤- ضمان النصر والمدد لهم قال تعالي "**بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ**" (آل عمران:١٢٥).

٥- استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم، قال تعالي "**أُولَئِكَ يجزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبروا ويلقون فيها تحية وسلاما**" (الفرقان:٧٥).

٦- الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى "**والملائكة**

(١) الصبر في القرآن الكريم د: يوسف القرضاوي ص ١٢.

يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" (الرعد:٢٣، ٢٤)([1]) وغير ذلك من الجزاءات الكريمة من رب كريم لأهل الصبر والخيرات الوفيرة التي منحها الله تعالى لهم، ألا ما أجمل الصبر، وما أحسن عاقبته.

فضل المرابطة في سبيل الله:-

المرابطة هي الإقامة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء وصيانتها عن دخول الأعداء إلي حوزة بلاد المسلمين([2]) وأرى أن المرابطة يتسع ليشمل كل جهد يبذل من زراعة وصناعة وتجارة وعلم الخ بقصد إعفاف النفس وكفايتها وإغناء الأمة ورفع رايتها وسد حاجاتها، ومن جميع ذلك وبجهد أبنائها تستمد قوتها وتحفظ هيبتها، وترهب عدوها، وقد وردت الأخبار الصحيحة التي ترغب في المرابطة وتبين ما أعده الله لأصحابها من الثواب العظيم من ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها"([3]) وما رواه مسلم أن النبي (ﷺ) قال: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جري عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان([4]) وغير ذلك من الأحاديث الدالة علي فضيلة المرابطة.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٥٩) بتصرف.

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٤٤٤).

(٣) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢ / ٢٣٣).

(٤) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب فضل الرباط (صحيح مسلم بشرح النووي (٧ / ٢٦٩).

وأما تفسير النص القرآني لختام سورة آل عمران فهو نداء من الله لعباده المؤمنين وأمر لهم بأن يتصفوا بأمور أربعة هي: الصبر العام علي أمور الدين، والمصابرة والمجاهدة التي يحصل بها النفع العام والتام، ثم ترقى إلى نوع آخر من ذلك هو أعلى وأغلى وهو المرابطة التي هي الإقامة في الثغور لدفع سوء مترقب ممن وراءه، ثم أمر سبحانه مختتما الآية بالتقوى العامة، إذ لولاها لأوشك أن يخالط تلك الأشياء شيء من الرياء والعجب ورؤية غير الله تعالى فيفسدها، وبهذا تم العلاج الذي يبرئ العلة فهذه الأمور التي ذكرت في الآية إذا ما فعلت كانت سبباً في فلاحهم وسعادتهم.

قال الزمخشري: أي اصبروا علي الدين وتكاليفه، وصابروا أعداء الله في الجهاد أي غالبوهم في الصبر علي شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبرا منهم وثباتاً والمصابرة: باب من الصبر ذكر بعد الصبر علي ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته، ورابطوا "أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين، مستعدين للغزو"(١).

وثمت وجه آخر في تفسير المرابطة ذكره ابن كثير في تفسيره حيث قال: وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات، وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، وساق ابن كثير بعض الأحاديث التي تشهد لهذا مثل قوله (ﷺ) "ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؛ إسباغ الوضوء علي المكاره وكثرة الخطا إلي المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم

(١) الكشاف (١ / ٤٤٩).

الرباط"([1]) إلي غير ذلك من الأحاديث.والذي أراه أن الآية تحتمل الوجهين فلا تضاد بين الرباط في نحور الأعداء وحفظ ثغور الإسلام والرباط بمعني انتظار الصلاة بعد الصلاة، فلا مانع أن يكون هذا المعنى مرادا أيضا، لا سيما وقد ورد في تفسير الثعالبي: روى ابنُ المبارك في «رقائقه»، أنَّ هذه الآيةَ: "**اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ**" إنما نزلَتْ في انتظار الصَّلاةِ خَلْفَ الصلاة؛ قاله أبو سَلَمَةَ بْنُ عبدِ الرحمنِ قال: ولم يكُنْ يومئذٍ عَدُوٌّ يرابَطُ فيه"([2]).

ومن هنا عقب الحق تعالى بقوله "**وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ**" وهذا مبني على أن المعنى: لكي تفوزوا وتظفروا بنيل المنية ودرك البغية والوصول إلى النجاح في الطلبة وذلك حقيقة الفلاح([3]) وتلك ثمرة من ثمار الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله في كل حال.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب الطهارة – باب فضل إسباغ الوضوء علي المكاره ح رقم ٢٥١ (شرح النووي (٣ / ١٤١) عن أبي هريرة (ﷺ)، وينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٣).

(٢) الجواهر الحسان للثعالبي (٢/ ١٥٨).

(٣) روح المعاني (٤ / ٢٧٤)٠

المطلب التاسع
أداء العبادات مع فعل الخيرات

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرد الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسول وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه(١).

ومن المعلوم أن العبادات هي دعائم الإسلام والتطبيق العملي للعقيدة، والعبادات بدورها تثمر السلوك الصحيح والخلق القويم، وترسم لشخصية المسلم الخطوط العريضة والملامح المشرقة، ويعيش حياته في إيقاعها الهادئ الهادف موصولاً بربه، حانيا على مجتمعه، ففي كل عبادة من عبادات الإسلام يستشعر بنبض الإيمان في أعماقه، فلا يصدر إلا عن حق، ولا ينبعث من حياته إلا الخير(٢) فهي تضيء حياة الإنسان، وتهذب سلوكه قولاً وفعلاً، بدنيا وماليا، سرا وعلانية، ولهذا يشعر المصلي بانشراح وقت الصلاة، وتغمر الصائم الفرحة عند فطره، وينعم المزكي براحة ضميره عند الإنفاق ويزداد الحاج تلبية لربه

(١) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤٩/١٠).

(٢) الإسلام وبناء الشخصية أ د / أحمد عمر هاشم ص ٢٢ – دار المنار – القاهرة.

وتعاونا مع إخوانه المسلمين، وبهذا يحيا الإنسان بطمأنينة ورضا في محيطه الإنساني، ويظل مصغيا لنداء المراقبة والمحاسبة، غير هياب من عواصف الحياة، وغير قنوط عند صدماتها ثم يعكس ذلك السلوك علي المجتمع الإسلامي. أما المجتمع الذي يفعل الخير فهو متكامل فاضل، يحقق لنفسه السعادة والفلاح والأمن والرخاء تجد المسلم فيه يسارع إلى عمل الخير ما استطاع إلي ذلك سبيلاً، ينفس كربة المكروب، ويساعد المحتاج، ويمد يد المساعدة لإخوانه من المسلمين، وجانب الخير والمعروف فيه لا ينقطع وتشرق حياته بالبر والرحمة وبالتعاطف والتواصل مع الناس، وفي كل خطاه لا يبتغي من أحد جزاء ولا شكوراً وإنما يقوم بما يقوم به ابتغاء وجه الله تعالي، ولا يحتقر شيئاً من صنائع المعروف مهما قلت.

يقول الإمام محمد أبي زهرة: "إن العبادات في الإسلام ليس تجردا من الدنيا، ولكنها في العمل لشئون الدنيا أيضا بسد حاجات الناس، ومد يد المعونة إليهم وطلب المرضاة من رب العالمين، كما أن العامل إذا لاحظ أنه يقوم بخدمة اجتماعية للناس، وأنه يؤذيهم إن امتنع ولم يعمل، وأنه إن أراد أن يعمل لإرضاء الله تعالى بنفع عباده يعلو إلى مستوى تسموا فيه نفسه عن أن يكون خادما لأحد من الناس، بل خادم للكافة يقوم في حدود عمله بقدر طاقته، ويشعر أنه ما دام يعمل فهو يعبد الله تعالى، وأنه إن ترك عمله ينقص من حاجات الناس بمقدار الترك، وأن هذا بلا ريب يربط الآحاد بمجتمعهم ربطا وثيقا"(١) وقد بين الحق تعالي لنا ذلك في قوله تعالي: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُوا واسْجُدوا واعبدوا**

(١) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام للإمام محمد أبي زهرة ص:٩٨، دار الفكر العربي.

ربَّكم وافْعَلوا الخيرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فهذه الآية قد رسمت للمجتمع المسلم طريق الفلاح في الدارين، وحددت كذلك وظيفة الإنسان في هذا الكون، فالآية تأمر بالركوع والسجود وعبادة الله الخالصة، ودعت المسلمين إلى فعل الخيرات وكريم الخلال وفضائل الأعمال لأن الإنسان لا يعيش بمفرده في هذا الكون بل يعيش معه أناس آخرون يحتاجون إلى العون والمساعدة وهذه الأمور إن فعلت كانت سبباً في فلاح الفرد والمجتمع.

ويبرز الإمام الرازي **مناسبة هذه الآية لما قبلها** فيقول: اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع وهو من **أربع أوجه أولها:** تعيين المأمور **وثانيها:** أقسام المأمور به **وثالثها:** ذكر ما يوجب قبول تلك الأوامر **ورابعها:** تأكيد ذلك التكليف"(١) ولي وجه آخر في المناسبة وهو:لما بين الله تعالى في الآيات السابقة فساد ما اتجه إليه بعض الناس من عبادة الأصنام، حين ضرب المثل لهم بالذباب ونحوه، وأنها لا تملك مثقال ذرة من ضر أو نفع لنفسها فضلا عن عابديها، ناسب أن يذكر هنا الأمر بعبادة من هو أولى بالعبادة، والدعاء والركوع والسجود وهو الرب سبحانه فقال تعالى"يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا.....الآية. والمراد: إن ضل الناس عن الإله الحق فينبغي أن تتجهوا إليه أيها المؤمنون بالعبادة والتوحيد دون سواه.

وفي معني قوله "اركعوا واسجدوا" وجوه:-

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٦٢).

الأول: أي صلوا وعبر عن الصلاة بهما؛ لأن هذين الركنين هما أشرف أركان الصلاة، والصلاة هي المختصة بهذين الركنين، فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة([1]).

الثاني: لأنهما لمخالفتهما الهيئات المعتادة هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير بهما([2]).

الثالث: أي اخضعوا لله تعالي وخروا له سجداً.

الرابع: المراد بالأمر بالركوع والسجود بمعناهما الحقيقي الشرعي في الصلاة، فإنهم كانوا في أول إسلامهم يركعون في صلاتهم بلا سجود تارة، ويسجدون بلا ركوع أخرى، فأمروا بفعل الأمرين جميعاً فيها([3]) لكن هذا الأخير ضعيف ولا دليل عليه ن وجل كتب التفسير ذكرته مصدرا بصيغة التمريض والضعف "قيل – ذكر – حكي "وما شاكل ذلك.بل إن الإمام الأوسي ذكره وعلق عليه قائلا: حكاه في البحر([4]) ولم نره في أثر يعتمد عليه)([5]) ومن ثم فلا يعتمد هذا الرأي في الآية، وإن كان قد ذكره جل الأكابر من المفسرين.

والمراد بقوله "**واعبدوا ربكم**": اعبدوه ولا تعبدوا غيره وقيل: واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات وقيل: افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات علي وجه العبادة وقيل المراد: الأمر بأداء

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٦٢).

(٢) السراج المنير (٢/ ٦٢٧).

(٣) روح المعاني (١٧ / ٣٠٧)

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٩١).

(٥) ينظر: الكشاف (١٦٨/٣)، بحر العلوم (٢/ ٤٩٢)، روح المعاني (٩ / ١٩٧).

الفرائض([1]) ونتساءل: ما فائدة قوله تعالى "واعبدوا ربكم" بعد قوله تعالى "اركعوا واسجدوا" مع أنه يدل عليه؟ **والجواب عن ذلك من وجوه:**

أولها: المراد أدوا الصلاة واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات.

ثانيها: افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لأنه لا يكفي أن يفعل فإنه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب والجزاء([2]).

ثالثها: وهو من استنباط الفقير إلى عفو ربه تعالى: أن المراد إخلاص الوجه لله تعالى في جميع الأعمال من ركوع وسجود وصدقة وصوم ونحو ذلك، إذ لا فائدة في هذه الطاعات بدون الإخلاص فيها لله تعالى، فإنه أهل لذلك.ويدل عليه التعرض لعنوان الربوبية في الآية الكريمة فقال" ربكم "بدلا من "إلاهكم" ونحوه. فكأنه قال: ينبغي أن تتجهوا بعبادتكم وجميع أعمالكم نحوه سبحانه وتفردوه بالعبادة، فهو موجدكم من العدم، ومربيكم ومغذيكم بالنعم حالا بعد حال، وآنا بعد آن..والله أعلم.والمراد بفعل الخير في الآية: هو إسداء الخير إلي الناس من الزكاة، وحسن المعاملة كصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر مكارم الأخلاق وهذا مجمل بينته وبينت مراتبه أدلة أخري([3]).

---

(١) مفاتيح الغيب (٨ / ٢٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٦٢) بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير (١٧ / ٣٤٦).

ويبدي العلامة أبي حيان سر مجيء الآية الكريمة على هذا الترتيب فيقول: ويظهر في هذا الترتيب أنهم أمروا

أولا: بالصلاة وهي نوع من العبادة.

وثانيا: بالعبادة من غير الصلاة كالصوم والحج والغزو..وهي نوع من فعل الخير.

وثالثا: بفعل الخير وهو أعم من العبادة، فبدأ بخاص ثم بعام ثم بأعم"(١).

قلت: فالآية الكريمة جاءت على هذا ترقيا من الخاص إلى العام، ثم ختمت بالأعم ليشمل كل نوع من أنواع الخير، وإن لم يتناوله ما ذكر في بدايات الآية حضا على المسارعة في الخير، وحثا على الاستزادة من أنواع البر.

ثم ختمت الآية بقوله "**لعلكم تفلحون**" وفي إيثار التعبير بكلمة" **لعل**"دون القطع بتحقيق الفلاح لهم؛ أن كلمة "**لعل**" للترجية، فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير، وليس هو على يقين من أن الذي أتى به هل هو مقبول عند الله، والعواقب أيضا مستورة(٢) ويبين صاحب الظلال أن هذه الآية تحمل في طياتها أسباب الفلاح فيقول: يأمر الأمة الإسلامية بهذا رجاء أن تفلح، فهذه هي أسباب الفلاح، العبادة تصلها بالله، فتقوم حياتها علي قاعدة ثابتة وطريق واصل، وفعل الخير يؤدي إلي استقامة الحياة الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة

(١) البحر المحيط (٦/ ٣٩١).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٣/ ٧٢)، السراج المنير(٢/ ٦٢٧).

الاتجاه، فإذا استعدت الأمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة فاستقام ضميرها واستقامت حياتها، نهضت بالتبعة الشاقة"([1]).

لذا يقرر القرآن في آية أخرى أن الدعوة إلى الخير والتناصح من أسباب الفلاح، وأن القائمين به والداعين إليه هم صفوة الأمة الحقيقون بوعد الله بنيل الفلاح، والظفر بما يرغبون وبالنجاة مما يرهبون، يقول (ﷻ) **(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** (آل عمران:١٠٤) والمراد بالأمة هنا الجماعة التي تؤم أي تقصد لأمر ما. والمراد من الدعاء إلي الخير: الدعاء إلي ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، وقيل الدعوة إلى فعل الخير يندرج تحتها نوعان: أحدهما:الترغيب في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف. والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر فذكر الحسن أولا وهو الخير ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان[2] فعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه من باب عطف الخاص علي العام إيذانا بمزيد فضلهما علي سائر الخيرات، قال ابن المنير: إن هذا ليس من تلك الباب لأنه ذكر بعد العام جميع ما يتناوله؛ إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور أو ترك منهي لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون تخصيصهما بتمييزهما عن بقية الأمور المدعو إليها، فالأولي أن يقال: فائدة هذا التخصيص: ذكر الدعاء إلي الخير عاما ثم مفصلاً، وتثنية الذكر علي وجهين ما لا يخفي من العناية بالدعاء إلي الخير([3]).

---

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٤٤٥).

(٢) تفسير الخازن (١/ ٢٨١).

(٣) ينظر: الكشاف والهامش (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

و"**من**" في قوله "**منكم**" قيل للتبعيض، وعليه فالآية تفيد أن الله أمر الأمة بأن يكون منها علماء يقومون بهذا الواجب، وقيل: إن "من" بيانية لأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علي كل الأمة في قوله (**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وتنهون عن المنكر**)([1]) والراجح أن الأمر هنا عام يشمل الأمة كلها، ولا يقتصر علي طائفة منها أو مجموعة، كما ذهب إلي ذلك بعض المفسرين، ويدل علي العموم قول الله تعالي "**والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**" وعلى هذا يكون التقدير، فلتوجد منكم وبكم وفيكم أمة داعية إلي الخير آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، وهذا يشمل كل قادر علي أقل تقدير([2]).

ثم تختم الآية بقوله "**وأولئك هم المفلحون**" وهذا القول الكريم "إشارةٌ إلى الأمة المذكورة باعتبار اتصافِهم بما ذُكر من النعوت الفاضلةِ وكمالِ تميُّزِهم بذلك عمنْ عداهم وانتظامِهم بسببه في سلك الأمور المشاهَدة، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعلو طبقتِهم وبُعد منزلتِهم في الفضل، والإفرادُ في كاف الخطابِ إما لأن المخاطَب كلٌّ من يصلُح للخطاب وإما لأن التعيينَ غيرُ مقصودٍ، أي أولئك الموصوفون بتلك الصفاتِ الكاملة "**هم المفلحون**" أي هم الأحقاء بكمال الفلاح([3]) والمقصود بشارتهم بالفلاح الكامل إن فعلوا ذلك، وقاموا بما يلزمهم علما ودعوة وسلوكا والله أعلم.

---

(١) روح المعاني (٤/ ٣٤).

(٢) تفسير المنار (٤/ ٣٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٢/ ٦٧).

المطلب العاشر

التوبـــة

من الأخلاق النبيلة التي ينبغي أن يتحلى بهـا المـسلم الكامـل؛ إذ إنهـا أول منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطـالبين، فمـا حقيقـة التوبـة؟ وما أثرها في فلاح المجتمع؟

التوبة: هي الرجوع عن البعد عـن الله إلـي القـرب إليـه سـبحانه(١) وقيل: هي الرجوع عما كان مـذموماً فـي الـشرع إلـي مـا هـو محمـود فيه(٢) وهناك من يصور معناهـا بأنهـا: علـم بـضرر الـذنب وتـألم فـي القلب بسبب ذلك، وندم علي ما فـات، وقـصد إلـي الـتخلص مـن الـذنب، وترك للمعصية في الحال والعـزم علـي تركهـا فـي الاسـتقبال(٣) وقيـل: التّوبة هي الرّجوع إلى اللّه بحلّ عقـدة الإصـرار عـن القلـب، ثـمّ القيـام بكلّ حقوق الرّبّ، وقيل: التوبة الاعتراف والنّـدم والإقـلاع(٤) فـنحن نـرى أن كلمة التوبة تتسع لتشمل هذه المعاني، فالتوبة إقـلاع عـن الـذنب وهـي إنابة إلى الله تعالي وندم علي ما فرط العبـد تجـاه مـولاه والعزيمـة علـى ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمـال ومـن ثـم عرّفـت بأكثر من تعريف.

---

(١) دليل الفالحين لمحمد بن علي بن محمد الصديق (١ / ٢٨) دار الفكر.

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٩).

(٣) موسوعة أخلاق القرآن (٢ / ٥٣).

(٤) التعريفات ص: ٧٤.

أثر التوبة في فلاح المجتمع

إن المتأمل لما وقفنا عليه حول خلق التوبة يستطيع أن يجني ثمارها كما هي في الآيات البينات، ولها أعظم الأثر في تحقق السعادة، والتوبة النصوح لها ثمار دانية القطوف يجدها كل تائب في نفسه وفي دنياه وآخرته، **أما في الدنيا فهي:**

١- أنها سبب في حب الله تعالي لقوله "**إِنَّ اللهَ يُحِبّ التَّوَّابينَ وَيحبُّ المتَطَهّرينَ**" (البقرة ٢٢٢).

٢- أنها سبب في إنزال المطر وسعة الرزق في المال والولد، قال (ﷻ) "**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً**" (نوح:١٠: ١٢).

٣- أنها تحقق المتاع الحسن في الدنيا قال سبحانه "**وأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**" (هود:٣) أما في الآخرة فهي:

١- تبديل السيئات حسنات قال تعالي: "**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**" (الفرقان:٧٠).

٢- أنها تجعل الإنسان ممن يتقبل منه أحسن العمل ويتجاوز عن سيئاته، قال تعالي "**إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ**" (الأحقاف:١٥، ١٦).

٣- تكفير السيئات ودخول الجنات قال تعالي "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**" (التحريم: ٨) إلي غير ذلك من الآيات التي دلت دلالة بينة علي أن التوبة لها عميق الأثر في سعادة الفرد في الدارين.

هذا، وقد جعل الله تعالي التوبة من أسباب الفلاح والسعادة فقال (ﷻ) "**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (النور:٣٠) فخاطب الله تعالى أهل الإيمان، وخيار خَلْقه أَن يتوبوا إليه، ثمّ علَّق الفلاح بالتوبة تعلُّق المسبّب بسببه، وأتى بأداة (لعلّ) المشعرِ بالترجي؛ إيذاناً بأَنَّكم إذا تبتم كنتم على رجاءِ الفلاح، فلا يَرْجوا الفلاحَ إلاَّ التائبون(١).

وفي المراد بالتوبة في الآية **وجهان: أحدهما:** أن تكاليف الله تعالي في كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا ينفك من تقصير يقع منه، فلذلك وصي المؤمنين جميعاً بالتوبة وتأميل الفلاح إذا تابوا **الثاني:** قال ابن عباس (رضي الله عنهما): توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة(٢).

والجملة كما يقول ابن عاشور: "معطوفة على جملة "قل للمؤمنين" ووقع التفات من خطاب الرسول (ﷺ) إلى خطاب الأمة لأن هذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل وليس استئناف تشريع"(٣) وفي تكرير

(١) بصائر ذوي التمييز (٥٥٥/١).
(٢) مفاتيح الغيب (١١ / ٥٤٦).
(٣) التحرير والتنوير(١٨/ ٢١٤).

الخطابِ بقوله تعالى "**أَيُّهَ المؤمنون**" تأكيدٌ للإيجاب وإيذانٌ بأنَّ وصفَ الإيمانِ موجبٌ للامتثال حتماً(١) فلا فلاح ولا نجاح ولا فوز إلا بالتوبة من كل زلة، والإنابة إلى الله بالكلية.

وكرر الله تعالى هذا المعني في سورة القصص فقال تعالي "**فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ**" (القصص:٦٧) لما ذكر الله تعالى حال الكافرين وما جرى عليهم ذكر حال المؤمنين وما جرى لهم جريا على عادة القرآن أنه إذا ذكر أحد الفريقين ذكر الآخر.والمراد بالتوبة في هذه الآية: التوبة عن الشرك لأن الآيات التي سبقت هذه الآية تحدثت عن المشركين، فهذه الآية تنبه هؤلاء المشركين إلي أن الباب ما زال مفتوحاً أمامهم للتوبة وليس ذلك فحسب، بل إنه مفتوح أمامهم حتى يكونوا من المفلحين، قال الشوكاني مؤكداً ذلك: "إن تاب من الشرك، وصدق بما جاء به الرسل وأدي الفرائض، واجتنب المعاصي فعسي أن يكون من المفلحين أي الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين"(٢) و"**عسى**" من الله إكرام وتحقيق، ويجوز أن يراد ترجي التائب وطمعه، كأنه قال: فليطمع أن يفلح(٣) وقوله"**من المفلحين**" أشد في إثبات الفلاح من "أن يفلح"(٤).

هذا، ويظن كثير من الناس أن فائدة التوبة والغاية منها قضية أخروية فحسب، وهذا الظن لا بد من تصحيحه، فإن للتوبة هدفاً آخر

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٤٣).

(٢) فتح القدير (٤ / ١٧٧).

(٣) ينظر: الكشاف (٣/ ١٧٦)، محاسن التأويل (٧/ ٥٥٣).

(٤) التحرير والتنوير(٢٠/ ١٦٤).

وهو أنها تورث صاحبها المتعة والقوة والسعة والرخاء، فالتوبة فيها خيري الدنيا والآخرة، ولم ينحصر ثوابها في الآخرة فقط، بل لما كانت النفس مولعة بحب العاجل فقد أغراهم الحق تعالى على ذلك بصلاح الدنيا أيضاً والأمن والعيش الرغيد، وهذا ما تقرره آية سورة هود حيث يقول تعالى: "**وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**" (هود:٣) والتمتع يطلق بإطلاقين: بمعنى الانتفاع وبمعني طول العمر(١) وبناء علي ذلك اختلف المعني في قوله "يمتعكم" أي يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة(٢) وقيل: يعشكم في أمن ودعة(٣) وقيل: يعمركم(٤).

قلت: تفسير التمتع بطول المنافع أولى من تفسيره بطول العمر، لقوله تعالي: "**ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا يرسل السماء عليكم مدراراً**" ولأن الإمتاع حقيقي في الانتفاع مجازي في طول العمر، لأن طول العمر لازم له فلا يطول انتفاع إلا بطول عمر.

وفي المراد بالمتاع الحسن أقوال:

الأول: أنه طيب النفس وسعة الرزق.

الثاني: أنه الرضا بالميسور والصبر علي المقدور.

الثالث: ترك الخلق والإقبال علي الحق.

---

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية لـ محمد إسماعيل إبراهيم ص ٤٨٦ دار الفكر العربي.

(٢) الكشاف (٢ / ٢٠٧).

(٣) أنوار التنزيل (٥ / ١٠٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩ / ٧).

الرابع: الحلال الكافي الذي لا كد فيه ولا طلب.

الخامس: أنه المقترن بالصحة والعافية.

السادس: لزوم القناعة وتوفيق الطاعة([1]).

السابع: فوائد الدنيا وزينتها([2]) وضعف هذا القول أبو حيان فقال: وهذا ضعيف، لأن الكفار يشاركون في ذلك أعظم مشاركة، وربما زادوا علي المسلمين في ذلك. ووصف المتاع بالحسن؛ إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله وفي ثوابه وفرحه بالتقرب إليه بمفروضاته، والسرور بمواعيده والكافر ليس في شيء من هذا([3]) وقيل: ليدل علي أنه عطاء ليس مشوباً بالمكدرات والمنغصات التي تقلق الإنسان في دنياه وإنما هو عطاء يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التي أسبغها عليه مع المداومة علي شكره سبحانه علي هذه النعم([4]) والمراد بالأجل المسمى: الموت، وقيل: يوم القيامة، وقيل: دخول الجنة([5]) والأول هو الراجح لأن الانتفاع الحسن ينقطع بالموت. وعلي هذا المعني فالخطاب في قوله "يمتعكم" لجنس الأفراد، ولا يتحقق الإمتاع لأحد من أفراد الجنس إلا الموجد لشرط الإمتاع وإتيان الفضل من توحيد واستغفار وتوبة، أما لو كان المراد من الأجل المسمي: يوم القيامة فالخطاب لجميع الأمة بقطع النظر عن الأفراد([6]).

---

(١) انظر تفسير الماوردي (٢ / ٤٥٦٢)، البحر المحيط (٥ / ٢٠٢).

(٢) المحرر الوجيز (٣ / ١٤٩).

(٣) البحر المحيط (٥ / ٢٠٢).

(٤) التفسير الوسيط د / محمد سيد طنطاوي (١٢ / ١٩).

(٥) فتح القدير (٢/ ٤٨١).

(٦) روح المعاني (١١ / ٣٠٥).

ما يبدو من ظاهره التعارض بين النصوص:-

قد ينظر بعض الناس نظرة عجلى ويقول: هذه الآية تفيد أن العابد التائب منعم في الدنيا والآخرة، ولكن ثمة نصوصاً أخري تفيد أن المؤمن في تعب وعذاب في الدنيا، علي الضد من ذلك الكافر، منها قوله تعالي "**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يتكئون وَزُخْرُفاً**" (الزخرف:٣٣: ٣٥) وقوله (ﷺ) "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"(١) وهذا تناقض ظاهر، فكيف التوفيق بين ما تفيد هذه الآية وما تفيده هذه النصوص من الكتاب والسنة؟

التوفيق: لقد دفع المفسرون هذا التناقض ومن هؤلاء الإمام الرازي الذي انبرى لحل هذا الإشكال فقال: الجواب من وجوه:

الأول: المراد أنه تعالي لا يعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا.

الثاني: أنه تعالي يوصل إليهم الرزق كيف كان، وإليه الإشارة بقوله "**لاَ نَسْأَلكَ رزقاً نَحْنُ نَرْزُقكَ**" (طه:١٣٢).

الثالث: أن المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه، وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أتم لأنه أمن من زوال محبوبه فأما من كان مشتغلاً بحب غير الله كان أبداً في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله وكان عيشه منغصاً"(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب الزهد والرقائق (شرح النووي (٩ / ٣١٩) عن أبي هريرة (رضي الله عنه).

(٢) مفاتيح الغيب (٦ / ٣١٦).

كما أبدع العلامة الخازن في التوفيق بين النصوص المتعارضة فقال: أما قوله (ﷺ) "الدنيا سجن المؤمن" فهو بالنسبة لما أعده الله له في الآخرة من الثواب الجزيل، وأما أن الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة لما أعده الله له في الآخرة من العذاب الأليم وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات، والصبر عند المصيبات، فعلي هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة طيبة لأنه راض عن الله(١) أو أن المتاع الحسن للتائب إنما هو للتفضل والإنعام دون حساب ولا عقاب، وللعاصي الفاجر إنما هو للاستدراج مع الحساب والعذاب"(٢).

قلت: إن الإنسان التقي هو الذي رضي بقضاء الله وقدره فسعدت نفسه بهذا الرضا، ولم يكدر صفوه شيء فإن أعطي صحة ومالاً وغير ذلك من متع الحياة الدنيا فهو حامد شاكر، وإن حرم منها فهو راض صابر، ولم ينقص هذا الحرمان من سعادته شيئاً، بل نفسه مسرورة لأنه يؤمن تمام الإيمان أنه إن أعطي في الدنيا من قناعها فهو خير عجله الله له ليخبره به أيؤدي حقه أم لا؟ وإن منع من هذه المتع فهو خير ادخره الله له في الآخرة، وكان هذا ابتلاء له أيضاً أيصبر؟ أم يجزع ويترك الطاعة؟ فالمؤمن راض سعيد النفس في كلتا الحالتين، والكافر يائس جزع عند الحرمان، فرح عند الإتيان، وما أعده الله للمؤمن الشاكر الصابر في الآخرة من رفع للدرجات وتكفير السيئات والأجر العظيم لا يقادر قدره بالنسبة لما حل به من بلايا، وما أعطاه للكافر من النعم في جسده وماله وأهله لا يساوي شيئاً بالنسبة لما أعده الله له من العذاب في الآخرة.

---

(١) تفسير الخازن (٢ / ٤٧١).

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من آي القرآن لـ زكريا الأنصاري ص١٨٥ت: محمد الصابوني – مكتبة الصابوني.

المطلب الحادي عشر
العمل مع ذكر الله تعالى

قبل أن نخوض في تفسير الآيات الخاصة بهذا الأساس لا بد لنا أن نوضح أولاً دعوة الإسلام إلي العمل وبيان أهميته وأثره في تحقق الفلاح للمجتمع ثم بيان أثر الذكر في فلاح المجتمع فنقول وبالله التوفيق:لا شك أن مفهوم العمل في الإسلام لا يقتصر علي الاحتراف أو الاستصناع أو الاتجار، إنما يتسع ليشمل كل عمل أو منفعة يؤديها الإنسان مقابل أجر أو يستحقه سواء أكان عملاً يدوياً أم ذهنياً أم إدارياً"(١).

وهذا المفهوم بلا شك سيؤدي إلي نتائج منها أنه لا امتياز لفئة علي الأخرى فالأصل تساوي البشر من حيث كونهم عمالا وبشرا لهم كرامتهم وإن تفاوتت قدراتهم ومزاياهم، ومن خلال قراءة ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) نستنتج أن الإسلام يقدس العمل ويعلي من شأنه ويحث عليه، وقد امتن الله علي العباد أن ذلل لهم الأرض وسخر لهم البحر والبر تيسيراً لابتغاء فضله، قال (ﷻ) "**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**" (القصص:٧٣) وقال تعالى "**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**" (النحل:١٤) إذا فكل إنسان مطالب بالعمل

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام د: أحمد العسال، د / فتحي عبد الكريم ص ١٢٨ مكتبة وهبة القاهرة ط الثانية ١.

في المجتمع المسلم، ومأمور أن يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله مصداقاً لقوله تعالى "**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**" (الملك:١٥) ومما يدل على قدسية العمل اقترانه بالصلاة التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، الأمر الذي يدل علي منزلة العمل والعاملين عند الله (ﷻ) قال تعالى "**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ**" (الجمعة: ١٠).

ولقد رفع الإسلام العمل الدنيوي المقرون بالإخلاص إلي مرتبة العبادة بصفة عامة والجهاد في سبيل الله بصفة خاصة، فروي أن رجلاً مر على النبي (ﷺ) فرأي أصحاب الرسول من جده ونشاطه، فقالوا يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله: إن كان خرج يسعى علي ولده صغاراً فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى علي أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى علي نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء أو مفاخرة فهو في سبيل الشيطان"(١).

وفيما تقدم نستنتج أن العمل شرف وفخر وعزة، وليس له حدود ما دام هو من طريق حلال مشروع، ولقد أكد القرآن على وجوب العمل وأهميته ببيان أن جميع رسل الله (عليهم السلام) كانوا يعملون لكسب العيش، يقول تعالي "**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ**" (الفرقان:٢٠) كما بين الرسول الأكرم أن داود

(١) الترغيب والترهيب للمنذري (٢ / ٥٢٤) وقال المنذري: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(عليه السلام) كان يأكل من عمل يده فقال: ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"(١).

أثر العمل في فلاح المجتمع

إن المجتمع المسلم إذ أدي عمله علي الوجه الأكمل وبما يرضي الله تعالي فإنه – لا شك – سيحصد ما زرعه ثمار يانعة عاجلة وآجلة، أما العاجلة فهي الثمرة الدنيوية وتتمثل في زيادة الإنتاج وتنمية الثروة، وتعليم المسلمين أن يعودوا أنفسهم علي الاستعفاف ويلزموها الطريق المستقيم، ومحاربة الفقر، وعمارة الأرض التي استخلف الله فيها الإنسان، والمسلم بعمله الصالح يكون قد قام بعمل أخلاقي تعاوني فنفع عباد الله وسد حاجاتهم، وحقق الخير والتقدم والنفع لمجتمعه.ومن ثماره العاجلة النفع الديني الذي سيعود أثره علي الأمة الإسلامية فمن ذلك الاستعانة بالمال على طلب العلم والرحلة في سبيل تحصيله وأداء فريضة الحج، وبالعمل المثمر تستطيع الأمة أن تنشئ العديد من المشروعات النافعة كالمساجد والمعاهد والمستشفيات ورعاية الفقراء والمساكين.

ومن أهم وأنفع تلكم الثمرات التزود بالقوة المادية في إعداد الجيوش لمحاربة الأعداء دفاعاً عن الإسلام، وحماية مقدساته حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلي.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب البيوع – باب كسب الرجل وعمله بيده (٢ / ١٠) رقم ٢٠٧٢.

أثر الذكر في فلاح المجتمع:-

للذكر أثر عميق في فلاح المجتمع، فبه يستدفعون الآفات ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً"(١) وإذا انتقلنا إلي القرآن الكريم نجد أن الله تعالي قد أناط بالذكر فلاح المجتمع ومن ذلك:

١- بما أن الذكر من علامات المفلحين فقد نهانا الله عن ضده وهو الغفلة فقال تعالي "**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**" (المنافقون:٩) فوصف اللاهين عن ذكر الله بالخسران المبين.

٢- تعليق الفلاح باستدامة الذكر وكثرته، ونلمح هذا المعني في قوله تعالي "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ**" (الأنفال: ٤٥).

٣- الثناء على أهله، والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة، وذلك في قوله تعالي "**والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما**" (الأحزاب:٣٥)(٢).

وأما الآيات التي صورت لنا هذا الأساس فهي قوله تعالي "**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" فهذه الآية جاءت عقب حديث الله تعالى مع عباده

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣١٥).

(٢) السابق (٢/ ٤٤١: ٤٤٤) بتصرف.

المؤمنين وندبهم إلي صلاة الجمعة مع ترك البيع والتجارة وأن هذا خير لهم، وفيها يأمر الله عباده المؤمنين بعدم المكث في المسجد بعد الفراغ من صلاة الجمعة وحثهم علي العمل مع ذكر الله، والأمر هنا للإباحة كما قال القرطبي وغيره ([1]) ونظيره قوله تعالي "**لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغوا فَضْلاً منْ رَبّكُم**" (البقرة:١٩٨).

وقوله "**وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله**" أي الربح وطلب الرزق بالتجارة، وإذا كان المفسرون حملوا الآية على أنها حث للمسلمين علي العمل بعد قضاء الفريضة، فإن بعض المفسرين قد حملها على وجه آخر، وذكروا أن هذه الآية تحث المسلمين على عيادة المرضي، والعمل علي قضاء مصالح المسلمين، وحضور الجنازة وغير ذلك؛ لما روي عن أنس أنه قال في قوله "فَإِذَا قُضِيَت الصَّلاة فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْض" قال: ليست لطلب دنيا، ولكن عيادة مريض وحضور جنازة، وزيارة أخ في الله"([2]) وعن ابن عباس قال: لم تؤمروا بشيء من طلب الدنيا، إنما هي عيادة مريض، وحضور الجنائز، وزيارة أخ في الله"([3]) وعلى هذا فالآية ليست لطلب الرزق إنما لحث المسلمين على عيادة المرضي وحضور الجنائز والنفع العام.والذي أراه أن المعني الأول أوفق بالمقام والأولى بالسياق، يدل علي ذلك قوله تعالي بعد ذلك "**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً**" وقبلها من حظر البيع والتجارة أثناء إقامة

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٠ / ٥٤٢)، تفسير القرطبي (١٨ / ١٠٥) ، تفسير آيات الأحكام للسايس (٤ / ١٥٢).

(٢) جامع البيان (٢٨ / ٦٧).

(٣) فتح القدير (٥ / ٢٢٦).

صلاة الجمعة وإباحته بعدها، وهذا هو الراجح – والله أعلم وعلى ذلك فالمعنى: اطلبوا بأعمالكم والتمسوا من فضل الله تعالى غير ناسين مسبب الأسباب سبحانه وإن باشرتم الأسباب فالأسباب لا تعطي بذاتها، ولذا لم يقل الله تعالى "**وابتغوا الرزق**" حتى لا يفتن أحد بسعيه وكسبه وهو شبيه بقوله تعالى "**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**" (الملك:١٥).

ثم قال تعالى "**واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**" والأمر بالذكر على سبيل الاستقلال حتى لا يقصر المسلم ذكره لربه على حالة الصلاة فقط، والمراد بالذكر ما يشمل جميع أحوال الإنسان أي في كل أقواله وفي جميع أحواله وسائر حركاته وسكناته فإن ذلك سبيل الفلاح، وهذا ما قرره الإمام الطبري حين قال: اذكروه بالحمد لله والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم وتصلوا إلي الخلد في جناته([1]).

(١) جامع البيان (٢٨ /٦٧).

المطلب الثاني عشر
الثبات وذكر الله تعالى عند لقاء العدو

الثَّبَات ضدّ الزوال، يقال: ثَبَتَ يَثْبُتُ ثَبَاتاً، قال اللّه تعالى "**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا**" (الانفال: ٤٥) ورجل ثَبْتٌ وثَبِيتٌ في الحرب، وأَثْبَتَهُ السقم، ويقال ذلك للموجود بالبصر أو البصيرة، فيقال: فلان ثَابِت عندي، ونبوّة النبيّ (ﷺ) ثابتة، والإثبات والتَّثْبِيت تارة يقال بالفعل، فيقال لما يخرج من العدم إلى الوجود، نحو: أثبت اللّه كذا، وتارة لما يثبت بالحكم، فيقال: أثبت الحاكم على فلان كذا وثبّته، وتارة لما يكون بالقول، سواء كان ذلك صدقا منه أو كذبا، فيقال: أثبت التوحيد وصدق النبوّة(١) فمادة الثبات تدل على الاستقرار والرسوخ وعلى ضد التزلزل والاضطراب، وفيها أيضا معنى القوة، فإذا أضيف إلى المعركة فالمقصود به عدم مفارقة ساحة المعركة وعدم الفرار

ومن الآيات الجليلة التي أوضحت أن الثبات من مقومات تحقق الفلاح قوله تعالي "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ**" والخطاب في الآية هنا للمؤمنين، وصدر بحرف النداء والتنبيه لإظهار كمال الاعتناء بمضمون ما بعده والمراد بالفئة هنا:الجماعة من الكفار، ولم يوصفوا بالكفر هنا؛ لظهور أن المؤمنين لا يحاربون إلا الكفرة، والمراد باللقاء: الحرب(٢) يقول ابن عطية:هذا أمر بما فيه داعية النصر وسبب العز، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في كل

(١) المفردات ص: ٧٤.

(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٥).

ولاية لا يطلب ولا يتمنى، فإن ابتلي صبر على إقامة الحق، والذكر هنا يكون خفيا لأن رفع الأصوات في موطن القتال مكروه إذا كان إلغاطاً، فأما إن كان من الجمع عند الحملة فحسن فاتٌّ في عضد العدو"(١).

فالآية الجليلة قرنت الثبات والذكر بالجهاد، وأمرت بذكره تعالي عند الحرب، ومكافحة الأعداء ومعني الثبات هنا: أن يوطنوا أنفسهم علي اللقاء ولا يحدثوها بالتولي، والمراد بالذكر هنا: التكبير، وقيل: الدعاء، وقيل المراد بذكره سبحانه إخطاره بالقلب وتوقع نصره، وقيل: المراد اذكروا ما وعدكم الله تعالي من النصر علي الأعداء في الدنيا، والثواب في الآخرة ليدعوكم ذلك إلى الثبات في القتال(٢) وأرى أن الذكر هنا عام في الذكر باللسان من تكبير ودعاء وغير ذلك من أنواع الذكر، "وفي الآية تنبيه علي أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر مولاه سبحانه، وذكره جل شأنه في مثل ذلك الموطن من أقوي أدلة محبته جل شأنه"(٣) وختام الآية بقوله "**لعلكم تفلحون**" يتناسب مع السياق؛ إذ الغاية من القتال هي إحراز النصر على الأعداء، فدل الله تعالى على السبب الذي تحصل به النتيجة وهو الثبات والذكر، يؤكد ذلك صاحب المنار حيث يقول: هذَا الرَّجَاءُ مَنُوطٌ بِالْأَمْرَيْنِ كِلَيْهِمَا، أَيْ: إِنَّ الثَّبَاتَ وَذِكْرَ اللهِ تَعَالَى هُمَا السَّبَبَانِ الْمَعْنَوِيَّانِ لِلْفَلَاحِ وَالْفَوْزِ فِي الْقِتَالِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ فِي نَيْلِ الثَّوَابِ فِي الآخرة، أَمَّا الأول فَظَاهر وأما الثاني فأظهر، وأمثلته أكثر ومن أظهرها ما نزلت هذه الآية في سياقه، وهذه

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٦).
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٥ / ٤٨٩)، تفسير الجلالين ص١٤٩، روح المعاني (١٠ / ١٩).
(٣) روح المعاني (١٠ / ١٩).

السورة بجملتها في بيان حكمه وأحكامه وسنن الله فيه، وهو غزوة بدر الكبرى...ثم ذكر (رحمه الله) أمثلة أخرى كثيرة من الحروب المعاصرة كان الثبات والتدين هما أعظم العوامل في تحقيق النصر"(١).

(١) تفسير المنار(١٠/ ٢٣) بتصرف.

المطلب الثالث عشر
ذكر آلاء الله تعالى

لقد منح الله تعالى نعما عديدة ومتنوعة يتوقف عليها صلاح الحياة البشرية في الحال والمآل وصدق الله القائل في محكم التنزيل "**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**" (إبراهيم ٣٤) وتلك النعم تتطلب الشكر الدائم للمنعم جل شأنه فهي طاعة مخصوصة يقدمها الإنسان للوهاب الرزاق، ومن أهم المميزات التي تكون شخصية المؤمن فحين ينزل بالإنسان المسلم نعمة فيتجه بالشكر للمنعم الوهاب ويرعى حقوق الله فيها، ويقر بتفضل الله عليه، وموقناً من كل قلبه حين يكون كذلك فهو قوي الإيمان معتدل الشخصية، إنه من أول وهلة يدرك حقوق هذه النعمة، وما يجب عليه من شكر الله عليها"(١).

وحقيقة الشكر تعني كما قال ابن القيم في مدارجه: "ظهور أثر نعم الله علي لسان عبده ثناء واعترافاً، وعلي قلبه شهوداً ومحبة، وعلي جوارحه انقياداً وطاعة، ولا بد من خضوع الشاكر للمشكور وحبه له واعترافه بنعمته وثنائه عليه بها وأن لا يستعملها فيما يكره(٢) ولا يتم ذلك إلا بأمور منها معرفة المنعم وتعظيمه والإيمان بصفاته وتوحيده والإقرار بعبوديته وتقديسه والحاجة إليه والاعتقاد أن الخير والإحسان كله منه سبحانه، قال تعالى "**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ**" (النحل:٥٣) يلي ذلك ذكر النعمة واستحضارها في الذهن ومشاهدتها وتمييزها

(١) الإسلام وبناء الشخصية ص: ١٦١.
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٧٧).

امتثالا لقوله جل جلاله "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**" (فاطر:٣) وأيضاً التحدث بها والإخبار بوصولها من المنعم جل شأنه إخباراً مقروناً بالخضوع والإذعان لمن بيده ملكوت كل شيء متجنباً في هذا السبيل التفاخر والتباهي على الآخرين قال تعالي "**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**"

ومن معاني الشكر استخدام النعمة في طاعته سبحانه والتوقي من الاستعانة بها علي معصيته، فنعمة العقل تستخدم في العظة والاعتبار والتأمل في ملكوت السماوات والأرض والنظر في عواقب الأمور تحرياً للخير واحترازاً عن الشر، قال تعالي "**قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**" (يونس:١٠١) ونعمة البصر تستخدم فيما يعود نفعه علي الإنسان في الدنيا من قضاء الحوائج وتحقيق المصالح العاجلة وفيما يعود خيره عليه في الآخرة من الأجر العظيم ، وذلك بالنظر في دلائل قدرة الله تعالي ومساعدة من حرمه الله من هذه النعمة والنظر في كتب العلم وفي مقدمتها القرآن الكريم والحديث الشريف لتكون عبادته علي بينة وبصيرة بما شرعه لعباده. ونعمة السمع تستخدم في سماع القرآن والنصيحة والاستجابة لداعي الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالي "**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**" (النحل:٧٨) ونعمة اللسان تستخدم في ذكر الله (ﷻ) وهكذا لا يتحقق واجب الشكر إلا **بأمرين: أحدهما:** صرف النعمة إلى ما خلقت له من طاعة الله تعالى. **ثانيهما:** كفها عن المعصية، ومن أعظم النعم التي أسبغها الله علي

عباده نعمة المال، وتستخدم في إعطاء كل ذي حق حقه، والتصدق على المحتاجين والفقراء والمساكين رغبة في الثواب الأخروي، وعدم البخل بالمال وإمساكه.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أنه قد جعل الإقرار بالنعمة من صفات الأنبياء والمرسلين فقد قال تعالي علي لسان سليمان (عليه السلام) "**ربِّ أوزعْنِي أنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عليَّ وعَلَى وَالِديَّ**" (النمل:١٩) وشدد النكير علي من عرف نعمة الله ثم جحدها فقال (عز وجل) "**يَعْرِفُونَ نعمتَ الله ثُمَّ ينكرونَهَا وأَكْثَرهم الكَافِرُونَ**" (النحل:٨٣).

ومن مظاهر فضيلة التحدث بنعمة الله تعالى أن يتمتع الإنسان تمتعاً معقولاً مقبولاً معتدلاً بما ساق الله إليه من نعم وخيرات وآلاء والرسول (ﷺ) يقول في هذا الشأن: "إن الله يُحب أَنْ يَرَي أَثَرَ نعمتِهِ عَلي عَبْده"(١) وخاطب القرآن بني إسرائيل فذكرهم بنعمته عليهم فقال "**يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُروا نِعْمَتِي التِي أَنْعَمت عَلَيْكُم**" (البقرة:٤٠) وأخبرنا القرآن أن من كفر بأنعم الله عليه فسيذيقه الله العذاب الأليم في الدنيا والآخرة فقال عز شأنه "**وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**" (النحل:١١٢).

والملاحظ في كل هذه الآيات أن القرآن لا يذكر النعمة بمعزل عن المنعم سبحانه، إنما يذكرها منسوبة ومضافة إليه، كما يلاحظ أيضا أن الله تعالى أمر الخلق بذكر النعمة مضافة إلى الاسم الأعظم الذي يشعر

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الأدب باب ما جاء إن الله تعالي يحب أن يري أثر نعمته علي عبده (٥ / ١٢٣).

بالمهابة والخشية؛ لان حال الأكثرين كفران وجحود، لكنه حين أمر رسوله (ﷺ) بالتحدث بنعمته ذكرها مضافة إلى الرب الذي يشعر بالحب لان رسول الله (ﷺ) أعظم الشاكرين، وللإشارة إلى أن تربية الله له تربية من نوع خاص، لم يشركه فيها أحد من خلقه.

والخلاصة: فإن تذكر نعم الله تعالى يعد رادعا للفرد عن الخوض في محارم الله، وارتكاب المنكرات مهما كانت صغيرة، لأن الفرد الذي يتذكر نعم الله عليه يخالجه شعور يقيني بأن من وهبه هذه النعم سينزعها منه إن خالفه، فيقوى الوازع في نفسه، وينقطع عن المعاصي والآثام، ويكون لبنة صالحة من لبنات المجتمع الإيماني الفاضل المنشود.

مما سبق يتضح لنا بجلاء أن ذكر أنعم الله تعالي والقيام بشكرها حق القيام من أسباب الفلاح التي يرجوها المجتمع، أما إنكار أنعم الله تعالي والبطر بها ونسيان المنعم جل وعلا فهو من أسباب الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة وهذا ما أكده القرآن الكريم في معرض حديثه عن قصة قوم عاد مع أخيهم هود (عليه السلام)، يقول (ﷻ) "**أو عجبتم أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" (الأعراف:٦٩) ففي هذه الآية يذكر نبي الله هود (عليه السلام) لقومه أنه مرسل من قبل الله ليعرفهم الحلال والحرام، ثم يذكرهم بما أسبغه الله عليهم من النعم الكثيرة، فالله قد جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادهم في الخلق بسطة ثم يمنحهم علي أن يذكروا آلاء الله حتى يكونوا من المفلحين السعداء.والهمزة للإنكار، والواو للعطف

والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم؟ وذكر الإمام الرازي في تفسير هذا الذكر وجوها:

الأول: أنه الوحي الذي جاءهم به.

الثاني: أن الله أنزل عليه كتاباً معجزاً فسماه ذكراً كما سمي القرآن بهذا الاسم وجعله معجزة لمحمد (ﷺ) الثالث: أنه شيئاً آخرمعجزاً سوي الكتاب(١) والمراد بقوله "خلفاء" أي خلفتموهم في الأرض، أو خلفاء بمعني جعلكم ملوكاً في الأرض قد استخلفكم فيها من بعد قوم نوح(٢) قال السدي: جعلكم سكان الأرض بعد قوم نوح"(٣) ثم قال تعالى "**وزادكم في الخلق بسطة**" والمراد حصول الزيادة في أجسامهم "أو في القوة ذلك لأن القوي والقدر متفاوتة فبعضها أعظم وبعضها أضعف، ويحتمل أن يكون المراد من قوله "وزادكم في الخلق بسطة" كونهم من قبيلة واحدة متشاركين في القوة والجلادة، وكون بعضهم محبا للباقين ناصراً لهم، وزوال العداوة والخصومة من بينهم"(٤) ثم ختم الآية بقوله "**فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون**" وآلاء الله: النعم فأمرهم أولاً أن يذكروا نعمة الخلافة ونعمة الزيادة في الخلق، ثم أمرهم بذكر النعم علي الإجمال(٥) فالآية في معرض الحديث عن عاد قوم هود، وهي تلفت الأنظار إلى تشابه حال الكفار من أقوام الأنبياء

---

(١) مفاتيح الغيب (٥ / ٢٩٨).

(٢) الكشاف (٢ / ٦٩).

(٣) جامع البيان (٨ / ١٥٢).

(٤) الجواهر الحسان للثعالبي (٢ / ٢٨).

(٥) البحر المحيط (٤ / ٣٢٤).

في كل العصور، كما تبين سنة من سنن الله في الخلق، فسبيل الفلاح معلومة ومرسومة وواضحة لمن أراد أن يتذكر آلاء الله تعالى، ونسبة النعم إلى المنعم سبحانه، والقيام بحقها من شكر مسديها، وتوظيفها فيما يليق بها حسب المنهج الإلهي، كل ذلك يحقق لصاحبه الفلاح في الدنيا والآخرة.

فجعل الله تعالي ذكر النعم وسيلة إلي الفلاح وطريقاً موصلاً إليه فوجب على العاقل أن يذكر نعم الله عليه ويقررها علي نفسه، فيحمل ذلك على الخوف والحياء المانعين من عصيان المنعم ولذا ينبغي على المسلمين التحدث بنعم الله، والشكر عليها ولا يكونوا كقوم هود الذين أنعم الله عليهم بنعم كثيرة، وبالرغم من ذلك عصوا الله ولم يشكروه علي ذلك

وما سبق يستبين لنا أن ذكر آلاء الله تعالى من الأسباب الموصلة إلي الفلاح حيث إنه يأمر العباد بالتحدث بنعم الله وشكرها إذ إن الله وحده هو المستحق لهذا الحمد والشكر، وقد رأيت أن أختم تلك الدعائم بهذا المقوم الذي يرد العبد لخالقه، ويذكره بأنه لا منعم إلا الله وهذه النعم التي يعيش فيها الإنسان إنما هي من الله وينبغي أن يكون تسخيرها من أجل الله وفي طاعة الله والله تعالى أعلم.

الخَاتمَة

وبعد أن جُلت – بعون الله وتوفيقه – في رحاب دعائم الفلاح من خلال آي الذكر الحكيم، وما يكرم الله به عباده الذين تحلوا بهذه المقومات والتزموا بها وتعلقوا بها من ثمرات عظمي ومنح كبرى تحقق للعبد فلاح الدنيا والآخرة، وتنهض بالمجتمع المسلم إلى أعلى الذرى والتقدم والرفعة، أود هنا أن أستخلص أبرز نتائج البحث من خلال النقاط التالية:-

أولاً: أن الدعوة إلي الفلاح ينبغي أن تكون دعوة صافية مستقاة من القرآن والسنة، فهما منبع الخير ومطلع الهداية، ولا بد من تجلية حقائق المنهج الإسلامي وإظهاره للناس بصورته النقية المشرقة.

ثانياً: أن فلاح الفرد نواة لفلاح المجتمع؛ إذ إن المجتمع ما هو إلا مجموعة من الأفراد، فالتحلي بإحدى هذه الدعائم يدنو بالفرد من مرتبة الفلاح والسعادة، وبالتالي تتحقق هذه المرتبة لمن تحلي بها مجتمعة.

ثالثاً: أن الاستقامة علي دين الله تحقق النصر على الأعداء، وهي أيضاً تؤدي إلى ازدهار وسعادة المجتمع، وكثرة الخيرات فيه والبركة في أرزاقه، وهذا فضل من عند الله تعالي لأهل الإيمان وأهل الفلاح.

رابعا: أن الاستخلاف والتمكين في الأرض تبسطا وسلطانا وقوة ونجاحا من حظ المجتمع الذي يكون غالب أفراده من عباد الله الصالحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، المتحلين بمكارم الأخلاق وفاضل العادات والتزام الحق والعدل والتمسك بالعروة الوثقى.

خامسا: في بيان القرآن الكريم الأسباب التي توصل إلي الفلاح في الدنيا والآخرة ما يدعو كل مؤمن بالله حق الإيمان أن ينتهجها

ويحرص علي التعلق بها، ويعمل بمقتضاها، وكذا لفت الأنظار إلى جملة من الخصال الذميمة والرذائل البغيضة التي يجب التخلي عنها والتنزه من أدرانها، وما ذلك إلا ليؤكد للناس أن سبيل الحصول على الفلاح هو الإيمان بالله ورسوله، وتطهير النفس البشرية من أرجاس الآثام، وتكميلها وتجميلها بجميل الخصال وصالح الأعمال؛ لتنال الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة.

وبعد، فهذه محاولة متواضعة لتوضيح معالم طريق الفلاح كما بينها القرآن الحكيم، فإن كنت قد وفقت في عرضها فلله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى فحسب صدق نيتي وعيشي في ظلال القرآن الكريم ردحاً من الزمن، فاللهم اجعلنا من أهل القرآن وخاصته واجعلنا من المفلحين في الدنيا والآخرة، إنك سبحانك ولي ذلك ومولاه، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن

١- أحكام القرآن للجصاص دار الفكر.

٢- إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم لأبي السعود - دار إحياء التراث العربي.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي - مؤسسة البعثة - بيروت لبنان ط الأولى.

٤- بحر العلوم للسمرقندي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.

٥- البحر المحيط لأبي حيان ، دار الفكر ١٤١٢ هـ -١٩٩٢م.

٦- التحرير والتنوير لابن عاشور ط: الدار التونسية للنشر.

٧- البرهان في علوم القرآن للزركشي دار التراث القاهرة.

٨- تفسير آيات الأحكام للسايس، مكتبة الكليات الأزهرية.

٩ - تفسير آيات الأحكام أ. د / القصبي محمود زلط دار القلم - دبي.

١٠- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار البيان العربي -.

١١- تفسير الجلالين - نشر مكتبة الجمهورية العربية.

١٢- التفسير الكبير للإمام الرازي دار إحياء التراث العربي ط الأولي ١٩٩٧ م.

١٣- تفسير المراغي - مطبعة مصطفي البابي الحلبي - مصر.

١٤- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا دار الفكر - ط الثانية.

١٥- التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي، دار التفسير للطبع والنشر الزقازيق.

١٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري دار المعرفة - بيروت.

١٧- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الحديث - القاهرة، ط الأولي ١٤١٤ هـ.

١٨- روائع البيان في تفسير آيات الأحكام د / محمد علي الصابوني ط: دار الزهد.

١٩- روح المعاني للألوسي دار الفكر بيروت.

٢٠- صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني دار القرآن الكريم - بيروت.

٢١- فتح القدير للشوكاني - عالم المعرفة - بدون تاريخ.

٢٢- في ظلال القرآن لسيد قطب ط: دار الشروق ط الثالثة عشرة ١٤٠٨هـ.

٢٣- الكشاف للعلامة الزمخشري دار المعرفة بيروت لبنان.

٢٤- لباب التأويل للخازن - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، ط الثالثة ١٩٥٥ م.

٢٥- محاسن التأويل للقاسمي، دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسي البابي.

٢٦- المحرر الوجيز لابن عطية، دار الكتب العلمية - بيروت -.

ثانياً: كتب الحديث:-

١- الترغيب والترهيب للمنذري دار إحياء التراث العربي.

٢- سنن ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية فيصل الحلبي.

٣- سنن الترمذي - دار الفكر - بيروت.

٤- صحيح البخاري، تحقيق طه عبد الرءوف سعد - مكتبة الإيمان المنصورة ١٩٩٨.

٥- صحيح مسلم بشرح النووي تحقيق: عصام الصبا بطي وآخرين دار الحديث – القاهرة.

٦- فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر ط المكتبة السلفية.

٧- المسند للإمام أحمد دار صادر بيروت.

٨- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير. المكتبة العلمية - بيروت.

ثالثاً: كتب اللغة والمعاجم:-

١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، المكتبة العلمية بيروت.

٢- التعريفات للجرجاني دار الكتاب العربي ١٤٠٥هـ- ط أولي.

٣- تهذيب اللغة للأزهري الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٤- القاموس المحيط للفيروز آبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م.

٥- لسان العرب لابن منظور - دار المعارف - مصر.

٦- المصباح المنير للفيومي، دار الفكر.

٧- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل إبراهيم دار الفكر العربي.

٨- معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، دار الفكر.

رابعاً كتب متفرقة:-

١- الإسلام وبناء الشخصية د / أحمد عمر هاشم، دار المنار - القاهرة.

٢- التدابير الواقية من الربا د / فضل إلهي ط: مكتبة المؤيد - ط ثانية ١٤١٢ هـ.

٣- الجهاد والإسلام في ذروة الإسلام لمحمد حسين بنجر، دار الفكر العربي.

٤- حكمة الإسلام في تحريم الربا ليوسف حامد العالم، دار الصحوة ، ط ثانية ١٤٠٧هـ.

٥- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ط المنار الإسلامية ١٩٨٦ م.

٦- مدارج السالكين لابن القيم ط دار التراث العربي.

٧- مغني المحتاج إلي معرفة معاني ألفاظ المنهاج للشر بيني الخطيب، ط: الحلبي.

٨- مقومات الإنسانية في القرآن الكريم د / أحمد مهنا - مجمع البحوث الإسلامية.

٩- موسوعة أخلاق القرآن د / أحمد الشرباصي ط دار الرائد العربي – بيروت.

١٠- النظام الاقتصادي في الإسلام د / فتحي عبد الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ثانية.

١١- نظرة الإسلام إلي الربا لمحمد أبي شهبة - الشركة المصرية للطباعة والنشر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
تمهيد: (حقيقة الفلاح في اللغة ومفهومه في القرآن الكريم)	٧
مقومات الفلاح في القرآن الكريم]	١١
المطلب الأول: الإيمان بالله تعالي	١٢
المطلب الثاني: تقوى الله تعالى	٢٠
المطلب الثالث: النهي عن أكل الربا	٣٣
المطلب الرابع: اجتناب الخمر والميسر	٤٧
المطلب الخامس: اجتناب الشح	٥٦
المطلب السادس: طلب الوسيلة والجهاد في سبيل الله	٦٠
المطلب السابع: الإحسان	٧١
المطلب الثامن: الصبر	٧٥
المطلب التاسع: أداء العبادات مع فعل الخيرات	٨١
المطلب العاشر: التوبة	٨٩
المطلب الحادي عشر: العمل مع ذكر الله تعالى	٩٧

المطلب الثاني عشر: الثبات وذكر الله تعالى عند لقاء العدو	١٠٣
المطلب الثالث عشر: ذكر آلاء الله تعالي	١٠٦
الخاتمة	١١٢
المراجع والمصادر	١١٤
فهرس الموضوعات	١١٨